محمد شهاب الدين الندوي

التجليات الربانية

في عالم الطبيعة

الآيات الكونية على إثبات التوحيد والرسالة ويوم البعث

(مجموعة محاضرات علمية تحت رعاية الأكاديمية الفرقانية)

من منشورات

الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)

منشورات الأكاديمية الفرقانية رقم ٦١
وأول منشور تحت رعاية "الحركة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم"

بالعربية : *الطبعة الأولى . . . . ١٩٩٨ (بنجلور)*
بالإنكليزية : الطبعة الأولى . . . . ١٩٩٧ (بنجلور)
بالأردية : الطبعة الأولى . . . . ١٩٩٨ (بنجلور)

Publishers & Distributors:

FURQANIA ACADEMY TRUST

82, 10th Main, 1st Cross, BTM 1st Stage, Bangalore-560 029 (India)
Tel: 91-80-6682101; Fax: 91-80-6682101; Cable: SHARIAH

Typeset by: Aneesur Rahman Nadwi at Furqania Graphics, Bangalore (India)
Printed at: Classical Printers, Delhi (India)

التجليات الربانية

في عالم الطبيعة

الآيات الكونية على إثبات التوحيد والرسالة ويوم البعث

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم. أما بعد:

إن القرآن الكريم صحيفة معجزة جامعة للعلوم الدينية والدنيوية لا يوجد لها نظير في جميع الآداب العالمية. وذلك أن القرآن الكريم يمتاز بأنه في الوقت الذي يتناول فيه من قضايا العقائد والعبادات والمعاملات ما يحيط به كافة الأصول الأساسية للحياة البشرية، فإنه يحيط كذلك بالعلوم الدنيوية والقضايا الفكرية والنظرية. لذلك فإن هدايته لا تكون محدودة على القضايا الشرعية والدينية، إذ أنه يقوم بهداية النوع البشري من النواحي الفكرية والنظرية ويؤمّنه من الاضطراب العقلي والنفسي. ومن هنالك كان القرآن الكريم مجموعة رائعة جميلة من إضمامة الشريعة والطبيعة حتى أعوز الإتيانُ بمثلها جميعَ النوع البشري.

والأمر أن القرآن الكريم يعمد إلى بيان تلك الحقائق والأسرار الطبيعية التي تبدّد الريب حول ربوبية الله تعالى وخالقيته، وتجيء بالآيات البينات والشواهد القاطعة للنوع البشري، حتى تتبين للإنسانية الضالة ما يشهده نظام الكون من البراهين الساطعة، لئلا يجوز لهم بعد ذلك أن يكفروا بالله تعالى، وتتمَّ حجة الله عليهم. وهذا ما دعا القرآن الكريم إلى الاستدلال بالمظاهر الكونيةالمختلفة وبيان القضايا الشرعية جنبا إلى جنب في كثير من

آيات القرآن الكريم. كما أنه يركّز على ضرورة مطالعة الأشياء المادية من الحيوانات والنباتات والجمادات والأفلاك، والنظر في نظمها، واستخراج العظات والبصائر - النتائج المنطقية - المودعة فيها، ثم الادّكار بها.

ونظرا لهذه الحقائق فإن القرآن الكريم صحيفة فطرية تدعو النوع البشري بإلحاح شديد إلى مطالعة مظاهر الكون باستخدام العقل السليم والقلب الصافي، ويحذّرهم من الإعراض عن النتائج المنطقية التي ظهرت لهم. وذلك لأن دراسة المظاهر الكونية دراسة علمية جادة تكشف عن الحقائق التي تثبت وحدانية الخالق الأعلى مع توفير الأدلة الناصعة على رسالة النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - والبعث بعد الموت، مما يكون - من الناحية الدعوية - أنفذ في قلوب الناس وأدعى لأذهانهم من مجرد دعائهم إلى الإيمان بالله تعالى والإسلام له. ومن أجل ذلك دعّم الله تعالى هذه الصحيفة بجميع أنواع الأسلحة - الأدلة العلمية والكونية - التي تمس الحاجة إليها وفقا للمقتضيات العصرية المتغيرة حتى لا تكون متخلفا في مضامير الاستدلال، بل يظهرَ كلمة الله تعالى من الناحية المنطقية. فقد كان من الأهداف الأساسية للقرآن الكريم من بيان حقائق النظم الكونية توفير الأدلة العلمية على التوحيد والرسالة والقيامة لإشباع الطبائع الاستدلالية. وهذا أيضا جزء من نظام الأدلة في القرآن الكريم. وإذا لاحظ الإنسان هذا الهدف الأساسي فستزول جميع الأفهام الخاطئة التي تراود الناس في هذه القضية. ومن هنا تشتد الحاجة إلى أن نُطْلِع الناس والجماهير على العلاقة الحقيقية بين القرآن والعلم، وعلى الهدف الأساسي للقرآن الكريم من الاستدلال بالمظاهر الكونية ونظمها.

وليعلم أن الأسرار والتفاصيل المتعلقة بالكون المادي المنزلة في القرآن الكريم إنما هي من معجزات الكتاب الحكيم، وحجة فالقة مبصرة على أنه من عند الله تعالى رب العالمين، علام الغيوب. وإنما الإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم يكمن في أن هذا الكتاب الحكيم لا يزال يفكك عقد الأفكار والأنظار البشرية ويهديهم للتي هي أقوم بالغا ما بلغوا من التقدمات في العلوم والفنون. ومن ثم كانت الأخبار والأسرار المتعلقة بالعلوم والفنون الكثيرة والتي يجمعها الكتاب الإلهي العظيم من رموز البيان وأساس البلاغة في القرآن الحكيم، وهي لا تكون مهجورة بائدة في أي عصر من العصور قاطعا ما قطعته العلوم البشرية أشواطا من التقدم. ولكنها تزداد إفصاحا وتزداد معانيها إشراقا وجلاءً من أجل التقدمات في العلوم المادية. وكيف يتصور من رجل من البشر أن ينفذ ببصره إلى العلوم والقضايا الناجمة في العصور المستقبلة. فيؤسس على أساسها كليات ثابتة لا تتحول.

فيصبح من المفوض أن يصرف الوجوه إلى ما جاء في القرآن الكريم من المعارف والأنباء الجليلة عن الكائنات المادية ناطقة عن إعجازه الحقيقي وبلاغته الأصيلة، فتقدم تلك المعارف إلى النوع البشري واضحة جلية لكي يجتلي الإنسان المعاصر الوجه المشرقة من كتاب الله تعالى ويؤمن به ويستيقن بهدايته المعجزة. ويجب كذلك أن يقام هذا العمل بمختلف لغات العالم وعلى ساحة واسعة إقامة لنشر الدعوة القرآنية وتبليغها على المسار المستقيم وحسبما تستلزمه المقتضيات العصرية.

وتحقيقا لذلك قامت الأكاديمية الفرقانية الوقفية بإنشاء فرع مستقل يقوم بمهامه تحت رعاية الأكاديمية بعنوان : "الحركة العالمية للإعجاز العلمي

في القرآن الكريم" نظرا للأهمية الكبرى التي يمتاز بها هذا الموضوع. و أن نكون في ذلك على اتصال قريب دائم بالجمعيات والهيئات والأشخاص العاملين في هذا المجال في العالم كله توسيعا لدائرة هذا العمل العظيم والزيادة من تفعيلها. فنحن نناشد بأصحاب الفضيلة العلماء والجمعيات والهيئات أن يجعلوا لنا نصيبا من العون والمساعدة. وكما أننا نزمع على عقد مباحثات ومؤتمرات علمية على المواضيع المختلفة المتبلورة في الموضوع الرئيسي.

ولقد رأينا أن نجعل من أول خطوتنا في هذا المجال ورميا إلى التعريف بأبعاد هذا العمل العظيم وتقديم صورة عن هذا المشروع الحديث أن نقوم بتفسير بعض الآيات القرآنية الناطقة عن النظام الكوني وشرحها في ضوء الكشوف الحديثة شرحا يكشف عن جوانب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فيما يتعلق بالنظام الكوني في جانب، ويقوم بدعوة النوع البشري إلى التفكير والتقدير في أن هذا الكتاب الجامع لحقائق العالم الطبيعي والأمين على الأسرار المكنونة فيه إنه ليس من قول البشر وإنما هو تنزيل من لدن ذلك الجليل الذي فطر السماوات والأرض وتعهدها بربوبيته، في جانب آخر. وإنني على ثقة واثقة بأن هذه الحقائق والعلوم إذا عرضت على الناس بالأسلوب الدعوي ومدونة على المنهج المنطقي وبالمناحي المختلفة لَما كان للنوع البشري الحاضر إلا أن يتأثر بها، لاسيما وإنما نرى الإنسان المعاصر قد ذهبت بألبابها هذه العلوم المادية، فلا يفعل في نفسه -إذن- إلا ما كان قائما على العلوم الحديثة، فقد انقلبت القيم في هذه الأيام وأصبحت أساليب الوعظ والإرشاد لا تسمن ولا تغني من جوع.

ولذلك جعل الله كتابه الحكيم مدججا بجميع أنواع "الأسلحة" حتى يتمكن أنصار الإسلام من منافحة الإلحاد واللادينية مستلئمين أحدث اللأم على نحو الطبائع المتغيرة من عصر لآخر. فلا يزال هذا الكتاب الحكيم غضا طريا ومشرقا زاهيا في كل عصر من العصور. فهل يكون شقاوة أعظم وأشقى من أن يظل المسلمون متشبثين بتلك الطرائق القديمة البالية مستنفرين عن العلوم الحديثة ونابذين لها. والواقع أن الناس ما كانوا ليزعموا نداء الإسلام ورسالته رسالة رجعية غير نافعة في العصر الراهن إلا لأن المسلمين قد باتوا عاجزين عن إدراك الإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم ورسالته الحقة. ولكن المسلمين أنفسهم أصبحوا متخلفين في قيادة الإنسان الحديث مما ألم بهم من الغفلة والجهل بالحقائق. وهذه الظاهرة يحتم علينا أن نقوم بتأليف كتابات دعوية من الطراز الحديث في هذا الموضوع مستبصرين للرسالة القرآنية الحقة ومسترشدين بدعوته الأصيلة. سدا لهذا الفراغ الواقع وأن نقوم كذلك بإعداد رسالات مختصرة تعالج الموضوع بجوانبه المختلفة وبطريقة مؤثرة فعالة. ونقدمها للناس لتكون عونا لهم على المعرفة الصادقة بحقيقة التوحيد والرسالة ويوم البعث في ضوء البحوث العلمية والتحقيقات الحديثة حتى لا يبقى للإنسان الحاضر ملتحدا لا الصدود عنها وحتى يتم عليهم الحجة. والغاية الرئيسية للقرآن الكريم هي أن يظهر الحق فيهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة. كما أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم ولم يجعل رزقه أن يقول صراحا على تلقين المواعظ والنصائح، وأنزله صحيفة عظيمة مجلوة بالأدلة العلمية والبراهين المنطقية وهو لا يعتمد على الأساليب الوجدانية والانفعالية. بل إنه يخاطب من الإنسان عقله ومنطقه

ويوجه إليه دعوة التفكر والتدبر، ويستدل بالنظام الكوني على ما يأتي به من التصريحات والدعاوي. وهذا هو الأسلوب الطبيعي والطريق المنطقي ولا نرى على وجه الأرض صحيفة حاملة له وداعية إليه، إلا هذا القرآن العظيم وأما سائر الصحف الأخرى فإنما هي مهجورة قد ذهبت روعتها وطراوتها.

فيجب على المسلمين أن يستعدوا لاتخاذ منهج قويم ومذهب سليم على نحو ما يطلب إليهم التعليمات الثورية للقرآن الكريم، ويسلكوا السبيل السوي ليمهدوا للنوع البشري طريق الهداية والسعادة. وإنهم إن لم يفعلوا ذلك وقفوا على ربهم موقف الجاني. وهذا "فرض الكفاية" مفروض على جماعة المسلمين من حيث المجموع. فإذا أهمل الجميع هذه الفريضة صاروا كلهم آثمين عند الله تعالى. والطريق الأمثل لأداء هذه الفريضة - فريضة الكفاية- أن يحشدوا لهذا الأمر جميع قواهم في تشجيع الجمعيات والأشخاص الذين وقفوا حياتهم لهذا الأمر العظيم، ويوفروا لهم من المعونات المالية ما يمكنهم من التفرغ لهذه الفريضة العظمى. وبدون ذلك لايتم هذا الأمر ولاتسقط عنهم الفريضة.

ولما رأينا جماهير الناس من المسلمين وهم لا يدرون بأهمية هذا الموضوع الدعوي وإفادته قدرنا من اللازم أن نعقد سلسلة من المحاضرات لتعبئة أذهانهم، وتنبيههم إلى عظمة الكتاب الإلهي وجلالته في ظل طبيعة العصر الحديث وعقليته، وترشيدهم إلى المسالك التي يسلكها القرآن الكريم في هداية النوع البشري، ولكي يصبحوا على علم بحقيقة هذا الكتاب الحكيم ورفعة قدره. وتحركا لهذا الغرض قامت الأكاديمية

الفرقانية الوقفية بتنظيم سلسلة من المحاضرات الشهرية عام ١٩٩٤م وقام كاتب هذه السطور بتقديم محاضرات مكتوبة حول العناوين المختلفة بالموضوع الرئيسي. وقد لقيت هذه المحاضرات قبولا رفيعا لدى الناس حيث أشادوا بمجهودات هذا العبد الضعيف. وأصر بعض الأصدقاء على جمع هذه المحاضرات القيمة في كتاب خاص تعميما للفائدة بها في أقرب فرصة. فجاء هذا الكتاب بإذن الله تعالى. ولقد ظل كاتب هذه السطور - والحمد لله- معتكفا على المطالعة والبحث والتأليف حول هذا الموضوع، منذ أربعين عامًا. وقد ظهرت فعلا ثمار تلك التحقيقات في صورة بعض الكتب التي أصدرتها الأكاديمية الفرقانية الوقفية من بنجلور.

وقد ضممت إلى هذه المجموعة مقالة جديدة على موضوع الاستنساخ الجيني مؤخرا في نهاية الكتاب، لها أهمية كبرى من الوجهة العلمية.

وإن ابني أنيس الرحمن الندوي قد ركب هذا الكتاب بالكمبيوتر وأعد فهارسه بجهد شاق وصححه عدة مرات.

وقد صدرت مجموعة هذه المحاضرات بالإنكليزية والأردية أيضا، وأرجو الله تعالى أن يتقبل هذه السلسلة ويضع لها القبول في الناس.

محمد شهاب الدين الندوي   بنجلور، (الهند)

المحاضرة الأولى

القرآن الكريم ومظاهر الطبيعة

الحاجة إلى تدوين الأدلة القرآنية

إن القرآن الكريم ليس كتابا من كتب التاريخ والفلسفة أو العلم، ولكنه مع ذلك يضم بين دفتيه حقائق تاريخية وفلسفية وعلمية، وإن كان أسلوبه في ذلك يختلف عن الأسلوب التاريخي والفلسفي والعلمي، بل إن وجهته الأساسية هي الإرشاد والتذكير. يعني أنه يلفت أنظار البشر إلى تلك الدروس والبصائر المودعة في تلك العلوم والفنون التي بدورها تهدي النوع البشري إلى عبودية الله، والتجنب عن التمرد والعصيان - إذا وفق الإنسان لفهمها فهما سليما. وهذا ناحية من نواحي الهداية والإرشاد في القرآن الكريم والتي لا بد منها في التوجيه العقلي والفكري السديد للنوع الإنساني. فإن القرآن الكريم كما أنه قاعدة محكمة للحياة من حيث الشرع، فإنه هداية للإنسانية جمعاء نظريا وفكريا والذي ينقذها من التخبط والهيمان في دياجير الأفكار والنظريات. فهو كتاب كامل هاد من جميع النواحي. وهذا مما يوفر الحجة القاطعة على كونه من صنع الله لا من صنع

البشر.

الإشارات الكونية

إن القرآن الكريم بما أنه كتاب هاد في كل عصر ومصر إلى يوم القيامة فإنه يجمع في طياته من الحجج والبراهين على ربوبية الله ووحدانيته ما يوافق عقلية العصور المختلفة إلى الأبد. فكما أنه يبين الأدلة المنطقية والعقلية، فإنه يذكر كذلك البراهين العلمية والطبيعية التي يتطلبها العصر الحديث. وهذه الأخيرة هي ما يعبر عنها في مصطلح القرآن بـ"الآيات". يعني تلك الآثار والدلائل التي أودعها الله في مظاهر الطبيعة لاستخراج العبر والبصائر منها، ولكي تبرز أمام الأعين أثناء القيام بالتفتيش والبحث في نظام الكون، فتحذر الإنسان وتنبهه على أن لها خالق ومالك، وهو الله تبارك وتعالى لا غير. وعلى هذا فإن مظاهر الطبيعة ونظمها هي كمعالم الطريق ومنارة النور للإنسانية الضالة، لتوجيهها إلى الوجهة الصحيحة في مسيرة الحياة. وانطلاقا من هذا المبدأ، فإن القرآن الكريم يحث الناس في كثير من المواضع على التأمل في الآفاق والأنفس، ويدعوهم إلى التفكير في السماوات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والجبال، والأنهار والدواب، والنباتات والجمادات، بل في الموجودات كلها ومظاهر الطبيعة جمعاء. لكي يتمكنوا من استنباط الدروس والأخبار، والعبر والبصائر المودعة في نظمها وتراكيبها من الوجهة العلمية والعقلية. بل إنه - في كثير من المناسبات - يهز الإنسان ويحذره بأن لا يعرض عن النتائج المنطقية المستنبطة من مظاهر الطبيعة، والتي تنبئ بوجود الخالق الأعلى الذي أحسن

كل شيء خلقه، والذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض. فقد قال الله تبارك وتعالى في كلامه المجيد:

﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفسكم أفلا تبصرون.﴾
الذاريات: ٢٠-٢١

وقال تعالى: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون.﴾ يونس: ٦

وقال تعالى: ﴿وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون.﴾
الجاثية: ٤

وكلمة "الآيات" المذكورة في الآيات السالفة الذكر، هي جمع "آية"، والمراد منها دلائل القدرة والربوبية المودعة في مظاهر الطبيعة. فإذا قام الإنسان بالبحث والتحقيق في هذه المظاهر والنظم الطبيعية -أي الأشياء المادية، فإن تلك الآيات والآثار تظهر في شكل الحجج المنطقية والأدلة العقلية، فتثبت وحدانية الله وربوبيته وقدرته الجبارة. كأن هذا الكون كتاب مفتوح رسم فيه معالم الوجود الأعلى الذي أبدع جميع ما في هذا الكون.

الأسس الثلاثة لدين الله

إن الهداية هي التوجيه السديد للإنسان من حيث الفكر والشرع. وبعبارة أخرى هي تبيين الحياة المؤسسة على عبودية الله وحده والامتثال الكامل لدينه. وهذا الدين مؤسس على أسس ثلاثة، وهي: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر. وهذه الأسس الثلاثة تمثل جوهر العقيدة

الإسلامية ومنبع دعوة الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام. وإن فكرة التوحيد والرسالة واليوم الآخر بما أنها من أهم دعائم الإسلام، والتي لا يتحقق إثبات حقانية الإسلام بدون إثباتها، فإن القرآن الكريم لا يدّخر وسعا في بيان الأدلة العقلية والمنطقية والعلمية لإثبات هذه الحقائق.

وإن القرآن الكريم بما أنه صحيفة سرمدية تقوم بهداية النوع البشري في جميع الأزمنة، فإنها تحتوي على الأدلة العلمية والعقلية مراعية نفسية جميع العصور، لكي تتمكن من الرد المقنع المفحم على الشكوك والشبهات التي يتعرض لها ذهن الإنسان عبر العصور والأجيال المختلفة بشأن التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت. فكأنها مزوّدة لمواجهة العلوم والفنون التي يسخرها الإنسان في المستقبل، لتكون هداية لكافة النوع البشري. وبناء على هذا فإنها تحيط بالعلوم الكونية كذلك، والتي هي ذات أهمية بالغة في العصر الراهن. ومن هذا المنظور فإنه ليس هناك تعارض فيما بين الطبيعة والشريعة، بل إن كلا منهما يكون مساعدا للآخر. والقرآن الكريم إنما يقيم الحجة على النوع البشري بالبحث في نظام الكون والاستدلال به. وإن هذا لحجة ساطعة على كونه دستورا كاملا للحياة. وإلا فإن صحف الأديان الأخرى عاطلة من هذا الأسلوب الفكري والاستدلال المنطقي.

التوافق بين الطبيعة والشريعة

وعلى كل فإن الله تعالى قد سن لهذا العالم نوعين من القوانين: أحدهما ديني وشرعي، والآخر طبيعي وكوني. والقرآن في الحقيقة كتاب

القوانين الشرعية، ولكنه يبحث ضمنا في الحقائق الكونية كذلك. ولكن هناك نسقا بديعا وخطة رائعة من عند خالق الكون. وهو أن الإنسان بنفسه يكتشف قوانين الطبيعة، فيصدق بها القوانين الشرعية ويؤيدها.

ولا بد أن لا يغيب عن أذهاننا أن الله تعالى كما أنه وضع للإنسان قاعدة شرعية فإنه قد سن كذلك نظاما طبيعيا للكون، وحدد له معالمه ومبادئه، كما يظهر من قوله تعالى:

﴿وخلق كل شيء، فقدره تقديرا.﴾ الفرقان: ٢

وقوله تعالى: ﴿إنّا كل شيء خلقناه بقدر.﴾ القمر: ٤٩

وقوله تعالى: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض.﴾ السجدة: ٥

وعلى هذا فإن الإنسان كلما تقدم في مجال العلم والبحث، وتدّرج إلى الرقي، واكتشف الحقائق الكونية المجهولة تتجلى أمامه ملامح الكمالات الإلهية، وعجائب أسرار الطبيعة التي بدورها تصدق القوانين التي شرعها الله تعالى. ومن هنا يظهر الانسجام البديع والتوافق الشامل بين الطبيعة والشريعة. ولا بد أن نكون على بينة من أن العلم لا يستطيع أن يخلق شيئا جديدا. وإنما يكشف عجائب القدرة وأسرار الربوبية. فإن خالق هذا الكون هو الله الواحد، الذي ضبطه وأتقنه بالضوابط المحكمة. كلما ظهرت هذه الضوابط بالاكتشافات الحديثة أشرق وجه كتاب الله العظيم، الذي قد أودع الله فيه من الأسرار الكونية. ولذلك قال الله تبارك وتعالى:

﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.﴾ الفرقان: ٦

وقال جل وعلا : ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض.﴾ النمل: ٢٥

تصديق الدعاوى القرآنية

فالعلاقة الصحيحة بين القرآن الكريم والعلم الحديث هي أن الغاية الأساسية من العلوم الحديثة والمعارف العصرية التي تكتشف بسبب الاكتشافات الحديثة، هي تصديق الدعاوى القرآنية والتوكيد عليها. فإن نظام الطبيعة تشهد بصدق الدعاوى التي قدمها القرآن الكريم في كثير من المناسبات. ومن أجل ذلك فإن القرآن الكريم يحث على دراسة نظام الطبيعة والتفكير في مظاهر الكون - أي الأشياء المادية، ويدعو النوع البشري إلى إعمال الفكر والنظر في النظم الطبيعية والكيميائية والبيولوجية العاملة في تلك المظاهر في مقامات شتى. كما أنه يستدل في كثير من المواضع على وحدانية الله تعالى وخالقيته وربوبيته وألوهيته بهذه المظاهر المختلفة والنظم المتنوعة. كما قال تعالى:

﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون.﴾
الروم : ٢٠

وقال تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين.﴾ الروم: ٢٢

وقال تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من دابة.﴾ الشورى: ٢٩

فمن أي ناحية يتفكر الإنسان في هذا العالم المادي وعجائبه، تظهر أمامه في كل مكان وفي كل شيء شواهد بارزة على وجود الخالق وأعماله الجبارة. وتفاجئك هذه الشواهد وتنبئك بخالقيته وربوبيته سواء درست النظم السماوية، أو شققت صدر الذرة الصغيرة، أو استعرضت اختلاف الأجساد وألوانها في النوع البشري، أو شاهدت النظم البيولوجية والنباتية، أو سرحت طرفك في عالم الجمادات، أو رجعت بصرك إلى الكرة الهوائية. فمن أي ناحية من النواحي الطبيعية والكيميائية والبيولوجية والأرضية والفلكية تقوم بمطالعة النظم المادية العاملة في هذا الكون تجد نسقا نموذجيا، وصناعة فائقة، ومهارة فنية بارعة، ونظاما بديعا رائعا مزودا بالضوابط المدهشة التي تقلب بصر الإنسان خاسئا وحسيرا. وهذا النظام البديع يُجلّي عن وجود مهندس ومدبر. وإن هذا الكون البديع لا يستطيع أن يدوم بحدوده ومعالمه بدون ذلك المهندس والمدبر، ولا يسعنا أن نعلل تلك المظاهر المادية عليلا سليما بدون الاعتراف بوجوده.

والحاصل أن هذه العجائب هي في الحقيقة "معجزات الربوبية" التي تنبثّ في هذا العالم ليذكّر الناس بها فيعترفوا بوجود الإله الجبار الذي خلقها، وهو مالكها وربها، وإليه إيابها. ومن هذا المنظور فإنه ليس هناك تعارض أو تناقض فيما بين القرآن والعلم. لأن الاكتشافات العلمية التي تقوم على أساس علمي وفني بحت، إنما هي تصدق التصريحات التي تقدم بها القرآن الكريم وتؤيدها. وإنما الخلاف في الواقع بين الدين واللادينية. وبتعبير آخر، إنه ليس هناك تدافع فيما بين القرآن الكريم والحقائق الكونية. وهذا الخلاف الذي نراه في بعض الأحيان إنما مرجعه إلى التفسير المشبوه

لتلك الحقائق وشرحها من الوجهة المادية ، والذي هو انحراف عن الحقائق الثابتة وتفنيد للواقع .

وعلى كل ، فإن الاكتشافات العلمية لا تضر بنصوص القرآن الكريم وتصريحاته شيئا ، وإنما تزيدها صدقا وضياءً. وهذا نسق بديع مدهش من عند الله تعالى. فكأن الإنسان بنفسه يصدق الأصول الشرعية عن طريق اكتشافاته لتكون حجة عليه. ولذا قال تعالى :

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . ﴾
حم السجدة : ٥٣

أهمية دراسة الطبيعة

وملخص القول أن دراسة الطبيعة لها أهمية كبرى في عين القرآن ، لأنها تتعلق بنظام الأدلة القرآنية ، حتى يكون الاستدلال بها على التوحيد والرسالة واليوم الآخر استدلالا مؤثرا بشيء ملموس ، ولكي يُنْذَرَ بها الجاحدون المعاندون من بطش الله تبارك وتعالى حتى يتبعوا الصراط المستقيم أو تقومَ عليهم الحجة. فقد قال تعالى :

﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . ﴾ يس : ٦٩-٧٠

وقال تعالى : ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . ﴾ الفرقان : ١

وقال تعالى: ﴿وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ.﴾
الأنعام: ١٩

ولذلك إن القرآن الكريم يحتوي على بيان جميع الأشياء صراحة، من حيث الفكر والشرع مبدئيًا، ليكون بشارة للمؤمنين فيما يتعلق بـ "الفتوحات العلمية" التي يحققها الإنسان في المستقبل، إلى جانب كونه مميزا بين الحق والباطل:

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين.﴾ النحل: ١٠٢

ولذلك قال تعالى في مناسبة أخرى إن الذين يغضون أبصارهم عن دراسة الطبيعة، ويعرضون عن الدروس والعبر التي أودعها الله تعالى في هذا الكون المادي، فسيحل بهم سخط الله تعالى. وإنه يبطش بهم على تكاسلهم وتساهلهم:

﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.﴾ يوسف: ١٠٥

وقال تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأي حديث بعده يؤمنون.﴾ الأعراف: ١٨٥

الحاجة إلى تدوين الأدلة القرآنية

وفي هذه المناسبة نقدر أهمية دراسة الطبيعة من أن ٧٦٣ آية في القرآن

الكريم - وفق تصريح الإمام الغزالي في كتابه الفريد "جواهر القرآن" - تختص بهذا الموضوع.

وهذا علم متفرد من العلوم القرآنية الخمسة. ولا بد أن يكون أمام أعيننا هنا أن القرآن الكريم استخدم لفظة "الآية" أو "الآيات" ٣٨٢ مرة في أمكنة متفرقة منه. ومعظم تلك الأماكن هي التي اختار الله فيها أساليب مختلفة للحث على دراسة نظام الكون، إلى جانب التوكيد على إعمال ما يملكه الإنسان من العلم والعقل والفكر والفهم والمشاهدة والتحسس لكشف عجائب الكون ونظمه المدهشة. وإذا قمنا بجمع تلك الآيات وتفسيرها وشرحها، فإن ذلك يشكل كتابا ضخما.

وعلى كل فإن نظام الأدلة القرآنية يقوم على أسس متينة من قوانين الطبيعة. وهو قادر على إيقاع أثره ونفوذه في نفوس البشر عبر العصور المختلفة والأمكنة المتفرقة. لذلك فإننا في أمسّ الحاجة اليوم إلى تدوين الأدلة القرآنية أكثر من أي وقت مضى، ليهتدي بها النوع البشري في مسار حياته، وليتمكن من الانفلات من شبكات الانحرافات الفكرية والضلالات العقلية. ولا يتحقق هذا الهدف الأسمى إلا في ضوء القرآن الحكيم.

كمال الإسلام وواجب العلماء

والحاصل أن الإسلام هو الدين الكامل، والنظام الشامل للحياة، والذي أثبت صدقه وصدوره من المصدر الإلهي بتحقيق الانسجام الكامل والتوافق الدائم بين الطبيعة والشريعة. لأن هذا الانسجام والتوافق إن دل

على شيء فإنما يدل على أن مصدرهما واحد وأصلهما واحد. وهذا هو السبب في أن كلا منهما يصدق الآخر ويؤيده. ولذلك فإن أي مجتمع إنساني لا يستطيع أن يستمر في سيره الحثيث إلى الرقي والتطور إلا بتحقيق التعامل والتوازن فيما بينهما. ولكن الكنيسة ألحقت ضررا كبيرا بالمجتمع الإنساني بفصلها بين الشريعة والطبيعة، والدين والدنيا، ورمت به في ضلالات الإلحاد والمادية. فينبغي لنا أن لا نعيد هذا الخطأ الشنيع للمرة الثانية، وأن نعمل على تحصيل التلاؤم والتضامن فيما بين الطبيعة والشريعة، لكي نتمكن من الهداية الصحيحة للنوع البشري. ولا يستطيع أن يضطلع بأعباء هذه الخدمة الجبارة في ضوء القرآن الكريم إلا العلماء المخلصون. فيجب عليهم أن يدرسوا الطبيعة ومظاهرها دراسة حقة من الوجهة الصحيحة، ويطبّقوا بينها وبين الشريعة، وينقذوا العالم الإنساني الذي قد كاد يهوي في الهاوية السحيقة. وإن لم يفعلوا ذلك فإن الأفعى الصلّ للإلحاد والمادية التي تترصد لابتلاع العالم الإنساني سوف تَزرَدُه من قمة الرأس إلى أخمص القدم. ثم لا نجد بعد ذلك من يندب على نعش الإنسانية. فيجب على العلماء المسلمين أن يهبوا من نومهم العميق، ويشمروا عن ساق الجد للقيام بمسئوليتهم التي نيطت بهم.

المحاضرة الثانية

مدخل إلى القرآن الكريم من الوجهة العلمية

نظرة عابرة على صفات الله تعالى في الكون

قد شاع سوء الفهم عن القرآن الكريم في مختلف فئات الناس. فبعض العلماء يزعمون أنه كتاب شرعي بحت وينبذون علومه الأخرى وراء ظهورهم. أما في بعض الأوساط العصرية فإنها تظن أنه كتاب علمي بحت ويتخذون علومه الشرعية وراءهم ظهريا، فإما إلى إفراط وإما إلى تفريط. فيتحتم علينا - إذن - أن نستعرض هذا الأمر استعراضا واقعيا حتى ننصف الكتاب الإلهي من هذا الإفراط والتفريط. ولذلك فإنني إذ أعرّف علوم القرآن الأساسية أذكر بعض المبادئ والكليات التي تعبّد الطريق إلى فهم القرآن الكريم من الوجهة العلمية، كما أنها تضيء فضيلة هذا العلم من حيث المصالح الدنيوية والأخروية. ولكن هذا العلم - ومن سوء الحظ - مظلوم جدا. وقد التزمنا هنا أن نتناول هذا الموضوع بالتعريف والدراسة في ضوء كتابات العلماء المتقدمين وآرائهم. ولكن يجدر بنا -

أولا – أن نحدد موضوع القرآن ومباحثه.

موضوع القرآن ومباحثه

إن نزول القرآن إنما كان للتوجيه الفكري السديد للنوع البشري، ولكن هذا التوجيه لم ينحصر في المسائل الشرعية فقط، بل هذا يشمل إصلاح الإنسان في مجالات الفكر والعقل أيضًا، فإن هدفه في ذلك أن يسدد الأفكار المتعوجة ويرشدهم إلى الصراط المستقيم. فقد قال تعالى:

﴿هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان.﴾ البقرة: ١٨٥

فقد دلّت هذه الآية الكريمة على أن القرآن الكريم ليس هداية للمسلمين فحسب وإنما هو رائد للإنسانية جمعاء يقوم بتوجيههم في مجالات الفكر والنظر. فقد ورد في القرآن الكريم:

﴿قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم.﴾ يونس: ١٠٨

وفي موضع آخر: ﴿الر. كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور.﴾ إبراهيم: ١

فما هي المجالات التي يقوم فيها هذا القرآن بالتوجيه والإرشاد؟ والجواب البسيط أنه دليل في جميع الأمور التي يبحث عنها. فيجب علينا – إذن – أن نتبين العلوم والمباحث التي تعرّض لها القرآن الكريم إجمالا أو تفصيلا. فقد صرّح الشاه ولي الله الدهلوي – رحمه الله – أن علوم القرآن الأساسية لا تخرج عن خمسة علوم:

١– علم الأحكام، كالواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام.

٢- علم المخاصمة والرد على الفرق الضالة.

٣- علم التذكير بآلاء الله، من بيان خلق السماوات والأرض ومن بيان صفات الله الكاملة.

٤- علم التذكير بأيام الله. يعني بيان الوقائع التي أوجدها الله سبحانه وتعالى من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين.

٥- علم التذكير بالموت وما بعد الموت.

وتفصيل علم الأحكام منوط بذمة الفقيه، وتبيان علم المخاصمة منوط بذمة المتكلم.[1]

العلم الأول والثاني من هذه العلوم يتعلقان بالعقائد والعبادات والمعاملات. والعلوم الثلاث الأخرى علوم تذكيرية تهدف إلى تنبيه الإنسان الناعس من غفلته. فالمراد من علم المخاصمة أو المجادلة هو المحاجّة مع الفرق الضالة والرّد على عقائدهم الباطلة بالأدلّة المنطقية، ليكون في ذلك تنقيح لعقائد المؤمنين وتطهير لإيمانهم. والقرآن الكريم هداية من الله ونور مبين في كل من العلوم الخمسة، فلا ينبغي لأحد أن يغضّ من قيمة أي واحد من تلك العلوم.

وفي هذا المقال أتناول العلْمَيْن الثاني والثالث من علوم القرآن الكريم وهما علم المخاصمة وعلم التذكير بآلاء الله بشيء من التفصيل. وهذا العلم الأخير يتعلق بنعم الله تعالى وآياته في الكون، وهو الذي ينبجس منه

---

[1] الملخص من: الفوز الكبير في أصول التفسير، للشاه ولي الله الدهلوي: ص١٥-١٦، طبعة كراتشي.

عيون العلوم الحديثة .

إصلاح الأمم الضالة

فأما علم المخاصمة فهو يبحث عن العقائد الزائغة للفرق الضالة ، ويثبت بالأخص أساسيات الإسلام ومبادئه ، من التوحيد والرسالة والبعث بالأدلة العقلية . وهذه العقائد الثلاث هي التي تدور حولها دعوة الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وهذه هي أساس الدين المنزل من عند الله تعالى .

ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن الإسلام في ماضي الزمان كان في مواجهة للقوى الشركية والكفرية . ولكن الأوضاع - الآن - قد تغيرت كثيرا ، فإنه الآن في مواجهة للقوى الإلحادية والمادية التي تنكر بوجود أي إله البتة . ومن هنا فإن القرآن الكريم ينطوي على أدلة علمية وعقلية تطابق نفسية الأجيال المتتالية إلى اليوم الموعود . وهذا هو السر فيما إذا اشتمل القرآن الكريم على بيان العلوم الحديثة والقضايا المستجدة ، أن يضطلع بأداء دوره في توجيه الإنسانية المتخبطة حسب المقتضيات العقلية والاستدلالية .

الخلائق الإلهية سلم إلى المعرفة الربانية

وأما "علم التذكير بآلاء الله" فهو يبحث عن نعم الله تعالى وآياته وإبداعاته . فهو يكشف عن عجائب آيات الله تعالى في صنعه ، وكوامل صفاته في خلقه . ومن هذا العلم تتجلى حقيقة ربوبية الله وألوهيته تماما . فكما قال الإمام الغزالي - رحمه الله - :

"إن العلم الأعلى والأشرف علم معرفة الله تعالى، فإن سائر العلوم تراد له ومن أجله وهو لا يراد لغيره، وهو الجواهر والباقي الصدف. ولا بد لمن يطلب معرفة ذات الله تعالى وصفاته من أن ينعم النظر في أفعاله. وبما أن هذا الكون بجميع مظاهره ليس إلا أفعالا لله تعالى فلا بد من دراسة تلك المظاهر - أي الأشياء المادية- للتوصل إلى معرفة صفات الله تعالى. ومن معرفة صفاته يترقى الإنسان إلى معرفة ذاته تعالى. فلا يستطيع أحد أن يطلع على ذاته تعالى إلا من سلالم أفعاله وصفاته". [٢]

وقد عمد الإمام الغزالي - رحمه الله - إلى الآيات التي تتعلق بذات الله تعالى وصفاته وأفعاله فجمعها في كتاب قيم وأسماها "جواهر القرآن"، وهي سبعمائة وثلاث وستون آية. ومعظم تلك الآيات هي مما يتعلق بالأشياء المادية والنظام الكوني من الوجهة العلمية. وتلك الآيات الكريمة تنبئ بقدرة البارئ تعالى وعظمته وربوبيته ورحمته، ورأفته بالمخلوقات وحكمته، وروائع تدبيره ومصلحته. ومن هنالك فإن الدراسة المستفاضة للأشياء المادية في ضوء العلوم الطبيعية إنما هي في الواقع دراسة لأفعال الله تعالى، مما يؤدي إلى معرفة صفات الله الكاملة وذاته العليا. وكما قال الإمام الغزالي:

---

[٢] الملخص من: جواهر القرآن، للإمام الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٥م.

"ليس في الوجود إلا الله وأفعاله، وكل ما سواه فعله."[٣]

تجلي الصفات الإلهية

والحاصل أن الإنسان إذا قام بالدراسة المبسوطة لنظام الكون البديع تجلت له كوامل صفات الله تعالى ودلائل وحدانيته في هذا العالم المادي، واجتلت العيون آثاره شرقا وغربا، حتى كأن الله تعالى قد تجلى لنا في هذا العالم فنستطيع أن نراه كأنه رأي العين. والحقيقة أن الإنسان إذا قام بدراسة النظم البديعة العاملة في المظاهر الكونية فاجأته عجائب صنع الله تعالى وبدائع خلقه عند كل رؤية وعند كل مشهد. سواء شاهدت ذرة صغيرة أو نظاما شمسيا هائلا، أو درست ألوانا من الأزهار المبتسمة أو أنواعا من الأوراق المخضرة، وسواء استعرضت أرضة أو نملة أو نحلا في اجتماعيتها البديعة، أو طالعت النظام البدني المدهش في الجسم الإنساني، أو الاختلافات العجيبة الدقيقة في أنواع الحياة من الحيوانات والنبات والجمادات. فأينما تسرّح طرفك في هذا الكون الواسع لا تجد إلا أعلام قدرة الله تعالى وآثار صنعه الفائق وفَطْره الرائع. وكأنها تناجيك بوجود يد قوية خلف كل من هذه المظاهر تعمل من وراء الستار بكل حذق وبراعة. وإلا فلم يكن من الممكن أبدا أن تجري مثل هذه السنن المترامية في هذا الكون دون خلل واضطراب. وهذا هو مشاهدة نظام "الوحدة" المودعة في الأشياء المادية دون الوقوف عند ظواهر تلك الأشياء. وحينئذ تدرك الأبصار

---

[٣] نفس المرجع السابق: ص٢٦.

أعاجيب صفاته الكاملة حتى كأنها تنظر إلى ذاته المقدسة رؤية ظاهرة مكشوفة.

واعلم أن علم العقائد يقسم الصفات الإلهية إلى قسمين: الصفات الذاتية، والصفات الفعلية. فمن صفات الذات: الجلال، والكبرياء، والقدرة، والعلم، والسمع، والبصر، والكلام. ومن صفات الفعل: التخليق، والتكوين، والرزق، والفعل، والإرادة، والمشيئة، والقضاء، والحكم.[٤]

فإذا ذهبنا نطبّق الصفات الإلهية هذه في ضوء العلوم الحديثة فإننا نجد أنفسنا أمام حقائق مدهشة، واهتدى النوعُ البشري إلى باب جديد للهداية. فمن أمَسّ الحاجات اليوم أن نُقبِل على هذا الموضوع بالبحث والتحقيق، ونقدّم الصفات الإلهية في ثوب قشيب بالاستعانة من إرشادات القرآن الكريم والاكتشافات الحديثة. فقد أصبحت الأرض متأهّبة بفضل الكشوف العلمية الحديثة.

إثبات العقائد الأساسية

فإذا كانت عقيدة التوحيد والرسالة والبعث من العقائد الأساسية في الإسلام، فإن القرآن الكريم يؤكد على إثباتها أيّما تأكيد، ويجعل هذا الكون الواسع ونظمه المدهشة دليلا عليها، حيث إن هذا العالم المادي بجميع ما فيه سائر دائب حسب ضابطة مشروعة لا يحيد عنها قيد أنملة،

---

[٤] شرح الفقه الأكبر، للأمام أبي منصور الماتريدي: ص٣٣، طبعة قطر.

ولا يسري إليه أي تفاوت أو فطور، وهذا مما يخبر بوجود مدبر يحرك وحده جميع ماكينة الكون، وهو مدهش في أفعاله وصفاته. كما قال تعالى:

﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير.﴾ الملك: ٣ - ٤

وهذا الصنع العجيب لمصور الكون شامل لجميع العوالم من الحيوانات والنبات والسماوات والجمادات. وقد لطفت إبداعاته ودق صنعه في جميع العوالم حتى إن العلماء الطبيعيين أنفسهم يصبحون مبهوتين دهشين بمشاهدة تلك الآثار، ولا يكادون يستطيعون بيان تلك القوانين الإلهية المودعة فيها بالصحة والكمال، فيسكتون متحيرين.

وإن القرآن الحكيم ليدعو الإنسان إلى التدبر في نظام الكون واستخراج النتائج المنطقية السليمة والبصائر الإلهية المودعة فيه، ليثبت وجود الله تعالى ووحدانيته، وقدرته وربوبيته بالحجج العلمية القاطعة، حتى لا يسع للإنسان التمرد والعصيان. فليس هناك أي تفاوت أو تغاير بين القرآن ونظام الكون أو بين العلم والقرآن. بل إن العلوم الطبيعية تساعد في شرح ما أجمله القرآن الكريم من إيحاءات ورموز في غضون آياته. وهكذا فإن العلوم الطبيعية لا تزال تصدق المعاني الحقة التي ذكرها القرآن الكريم. والفرق البسيط بينهما فرق الإجمال والتفصيل. فلذلك لا تجد أي كشف من الكشوف العلمية يفند أي تصريح من تصريحات القرآن الكريم.

وبالعكس تجد التغييرات المتتابعة في دنيا الأفكار والنظريات مع الزمن، فمن هذه الوجهة هذا الكتاب الحكيم حق وليس إلا من عند الله تبارك وتعالى.

القرآن يذكر بعض العلوم إجمالا

إن هناك خضما من الأسرار والمعارف في القرآن الكريم والتي تتضح شيئا فشيئا في ضوء العلوم الحديثة. وهكذا تتجدد إعجاز القرآن الكريم كل صباح ومساء. وهذا علم له آفاق رحبة لا يعرف حدا ولا قيدا. قال تعالى:

﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك.﴾ الانفطار: ٦-٨

يقول الإمام الغزالي في كتابه "جواهر القرآن":

"ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾ إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرا وباطنا، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها" [٥]

الآيات الكريمة المذكورة أعلاه ذكرت من أفعال الله تعالى ما يتعلق بعجائب الجسم الإنساني، وقد تطورت الآن علوم عديدة لدراسة الجسم الإنساني، من علم الحياة Biology وعلم التشريح Anatomy وعلم وظائف الأعضاء Physiology وعلوم الطب وغيرها من العلوم. فقد يصدق اليوم ما صرحه الإمام الغزالي قبل قرون. ولكن رغم جميع هذه العلوم لايكاد يعرف الإنسان كليا، بل ورغم كونه مظهرا من مظاهر الربوبية، فقد ظل

---

[٥] جواهر القرآن، للإمام الغزالي: ص٤٦.

حتى اليوم سرا مجهولا من حيث الوجهة العلمية. وقد ألف الدكتور "ألكسس كيرل" Alexis Carrol كتابا قيما حول هذا الموضوع، وهو "الإنسان ذلك المجهول" (Man the Unknown). [٦] وهذه الحقائق المذكورة تؤكد صدق الآيات التالية من القرآن الكريم بكل وضوح. قال تعالى:

﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.﴾ بني إسرائيل: ٨٥

ومن "أفعال" الله تعالى أنه جعل الشمس والقمر خلفة وقدرهما منازل. فقال تعالى:

﴿الشمس والقمر بحسبان.﴾ الرحمن: ٥

وقال تعالى: ﴿وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب.﴾ يونس: ٥

وقال تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل.﴾ فاطر: ١٣١

يقول الإمام الغزالي بعد ما ذكر هذه الآيات:

"ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان، وخسوفهما، وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السماوات والأرض، وهو علم برأسه." [٧]

---

[٦] راجع: Dr. Alexis Carrel, *Man the Unknown*, Wilco Publishing House, Bombay, 1959.

[٧] جواهر القرآن، للإمام الغزالي: ص٤٦.

إن القرآن الكريم يذكر الحقائق بغاية من الإيجاز، ولا يستطيع الإنسان أن يفسرها حق تفسيرها. وإن شئت فانظر إلى الإيجاز المعجز في قوله تعالى:

﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أ فلا تبصرون.﴾

الذاريات: ٢٠ - ٢١

إذا أردنا أن نفصل ما أجمله القرآن الكريم في هاتين الآيتين القصيرتين لاقتضى ذلك أن نتعرض لجميع تلك الحقائق العلمية التي أودعت في الكرة الأرضية، وفي نفس الإنسان وجسمه، والتي تتطلب طول الباع في علوم الأرض والجغرافية والنبات والحيوانات والإنسان وعلم النفس، وما إلى ذلك. ولله در العلامة ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) رحمه الله، ما أوفى وأروع ما أتى به - قبل قرون - في كتابه اليتيم "التبيان في أقسام القرآن" من بحوث وافية -هي بذاتها من "عجائب الربوبية"- في شرح هذه الآيات الكريمة.[٨] ومن المحقق أن المؤلفات العلمية بحذافيرها لا تستطيع أن تبرز جميع نواحي هذه الآيات وجوانبها. وهذا معنى قوله تعالى:

﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي، لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مددا.﴾ الكهف: ١٠٩

---

[٨] راجع: التبيان في أقسام القرآن، للعلامة ابن قيم الجوزية، إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

القرآن بحر زاخر

وهناك أمثلة غيرها كثيرة تدل على أن القرآن الكريم يشتمل على رموز إجمالية حول علوم وفنون مختلفة مما يقتضي الغوص في أعماق تلك العلوم والفنون لمن يحاول أن يطلع على شيء من أسرارها وعجائبها. وتلك الرموز هي بمثابة العناوين التي انتزعت فيها روح تلك العلوم. فالقرآن الكريم جامع لكثير من المعارف الطبيعية والحقائق الكونية، يمكن أن يصل إليها الإنسان بعد قرون مديدة وبعد دراسات ربما طالت قرونا. وأعْجِبْ به كلاما لا تخلق ديباجته من تلك التغيرات التي تطرأ على الأفكار والنظريات، بل إن الكشوف الحديثة إنما تجدد ديباجته وتمطر عليها ماء من البهاء والرواء، وتفتح كنوزا مغلقة من معارفه وعجائبه. وهل وراء ذلك من حجة واضحة وبينة علمية على أنه من عند الله عز وجل؟

نوعان من الحقائق

القرآن يذكر نوعين من الحقائق العلمية التي تتصل بالمظاهر المادية. أما أحدهما فهو من جنس الإشارات الإجمالية التي ذكرت آنفا. وأما الآخر فهو ما جاء فيه من بعض الأمور السرية في هذا الكون المادي وماكينته، وهي من "أسرار الربوبية" التي ذكرها القرآن الكريم في صُوَر المجاز والكناية أو التشبيه والاستعارة، والتي لا تدرك إلا في ضوء العلوم الحديثة. ومن أمثلة ذلك أن الله تعالى خلق النبات "أزواجا" ذكرا وأنثى، وقد ذكرت هذه الحقيقة في القرآن الكريم بكل صراحة. ولكن المفسرين ما زالوا يأخذون هذه اللفظة – الأزواج – في معناها المجازي، فإنها كما تصدق على معنى

الزوجين من الذكر والأنثى، فهي كذلك تراد في معنى النوع أو الصنف. فالإنسان لم يستطع أن يدرك هذه الحقيقة رغم هذا البيان الواضح إلا بعد ظهور الاكتشافات الحديثة. يقول الله تعالى:

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.﴾ يس: ٣٦

لم يستطع الإنسان أن يطلع على حقيقة كون النبات ذكرا وأنثى إلا في العصر الراهن، وقد صرح بها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنا لتكون دليلا على صدقه وواقعيته. وإن هذه الآية الكريمة تحتوي على حقيقة أخرى هي بمثابة أصل وكلية يتحدى الله بها الدنيا العلمية على بكرة أبيها. وهي أن الله تعالى قد خلق في هذا الكون أزواجا من الأشياء الأخرى غير الحيوانات والنبات مما لا يعلمها الإنسان. وهذه الكلية لا تنقض أبدا، حتى ولو اهتدى الإنسان إلى وجود الأزواج في شيء من الأجناس الأخرى سوى الحيوانات والنبات. هذه هي الكلمات الربانية الحقة التي لا تتغير أبدا، وليس فيها أي مجال للارتياب أو التشكيك. فقد قال الله تبارك وتعالى:

﴿تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لامبدل لكلماته.﴾ الأنعام: ١١٥

وهناك أمثلة أخرى كثيرة يضيق بها هذا المقال الموجز.

القرآن جامع لسائر العلوم

هذا القرآن كتاب إلهي جامع لا يوجد له أي نظير في كلام البشر. وهو جامع لسائر العلوم من الأزل إلى الأبد، وشامل للأسرار الكونية

الخفية. فقد قال تعالى:

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء.﴾ الأنعام: ٣٨

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء.﴾ النحل: ٨٩

وقد ورد في الحديث النبوي الشريف:

"*فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم*". [٩]

وأخرج سعيد بن منصور، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

"*من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين*". [١٠]

وكما يقول العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله:

"*قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء. أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى.*" [١١]

وفي القرن الخامس الهجري قدم الإمام الغزالي - رحمه الله - فكرة

---

[٩] أخرجه الترمذي وغيره. سنن الترمذي، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة: باب ما جاء في فضل القرآن، ص٥/ ١٧٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[١٠] الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ص٤/ ٢٤، دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

[١١] نفس المرجع السابق.

واعية تدل على بصيرته العلمية وفطنته الوقادة. فقد ذكر في كتابه "جواهر القرآن":

> "*ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الإمكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم أخرى لا يستطيع العقل الإنساني أن يدركها. ثم هذه العلوم وما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له.*"[١٢]

لمعات الربوبية

إن القرآن الكريم لَمِمّا يحثحث النوع البشري على التدبر والتفكر في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وكيفية تصريف الرياح ونظام الأمطار المدهشة، التي هي مكونة من مياه البحار، ثم تجيئ من البحر، إلى البرّ راكبة على مناكب الرياح، وفي عجائب الحيوانات والنبات، ودوران الشمس والقمر. وهكذا فإنه يدعوهم إلى التفكير في جميع ما في الكون من الموجودات والمظاهر بدقة وإمعان لكي يصادفوا ما فيها من عجائب الاتساق والتناسق، والتنظيم والتصميم، والوحدة والتناغم ودقة الصناعة والمهارة الفنية، مما يضطرهم إلى الإيقان بوجود قوة

---

[١٢] الملخص من: جواهر القرآن، للإمام الغزالي: ص٤٤-٤٥.

مدبرة وراء كل هذه المظاهر. ولا يتعامى بعد ذلك إلا الغافلون.

الكون المادي عرضة لأفعال الله تعالى

وثمرة الكلام أن هذا الكون بما فيه من المظاهر إنما هو أفعال لله تعالى، وهو يهدي الإنسان إلى معرفة صفات الله الحسنى. وهذه الصفات وسيلة إلى مشاهدة ذات الله المقدسة التي تتجلى بحُلل الربوبية والألوهية في هذا الكون، والتي بيدها ملكوت كل شيء، ولا تسقط من ورقة في هذا العالم إلا بإذنها. وهذا الكون هو مجموعة أفعال إلهية يدعو النوع البشري إلى التفكير في نظمه البديعة كي يعرفوا خالقه وربه. حتى إن الإنسان إذا شقق قلب ذرة من ذرات الكون فإنه يُفاجَأ بسلسلة لا متناهية من الدروس والبصائر، والتي تدل على قدرة الله القاهرة وربوبيته. فما أحسن ما قال الشاعر العربي:

لله في كل تحريكة　　وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية　　تدل على أنه واحد

الشرك في زي قشيب

وقد قيل قديما: "إن التاريخ يعيد نفسه". يعني أن الأوضاع القديمة والأفكار الماضية نفسها تظهر للناس في صورة متنكرة وأزياء غير مسبوقة، مهما تطور الزمان، فالروح هي هي، ولكن الأجسام مختلف. وهذا هو الذي نشاهد اليوم في شأن الشرك فإنه قد نكّر هيئته اليوم واكتسى كسوة المادية. فإننا نشاهد المنكرين المحدثين (الماديين) والمشركين القدامى يلتقون في

نقطة واحدة. وهي أن المشركين إنما كانوا ينسبون الصفات الإلهية إلى أرباب من دونه. والملحدون في العصر الحاضر وعبّاد المادة إنما ينسبونها إلى "المادة" Matter ويقولون: إن المادة هي المبدعة لنفسها، فهي العلة لوجودها، وهي الرحم التي تكتمل فيها الأشياء بنفسها، وهي ليست بحاجة إلى أي خالق أو مدبر. فإنهم نصبوا المادة مكان الإله. وهكذا فإنهما ركاب سفينة واحدة. ولا يختلفون إلا في أن المشركين يعترفون بوجود إله أكبر من سائر الآلهة التي يلحقونها شركاء بالله تعالى. وبالعكس فإن الماديين يعتقدون أن المادة هي الوحيدة والإله الأكبر.

ترشيد النوع البشري

فلم يزل يحمى وطيس التوحيد والشرك حتى اليوم. ولمواجهة هذا "الشرك الحديث" يلزم علينا أن نسلح أنفسنا بالأسلحة العلمية، فنقاومه مقاومة شديدة، وإلا لا يفرّ هذا العفريت المادي الذي تزيّا بزي العلم وصعد على عرشه.

ولهذا الغرض السامي فإن القرآن العظيم تعرض للشؤون الكونية وبيّن علاقة الإنسان بالكون، كما بيّن الأدلة العلمية على وجود الله وخلاقيته وقدرته وربوبيته، التي تدل على وجوب ألوهيته تعالى. فمن هذه الوجهة فإن القرآن الكريم قد أدّى دوره التوجيهي وهدى جميع الناس إلى ما هو الفوز والنجاح الأبدي. والآن تعود المسئولية على علماء المسلمين أن ينتبهوا ويستعدوا لأداء هذه الفريضة، فيتمهروا في جميع العلوم الحديثة، حتى يتمكنوا من ترشيد النوع البشري في جميع ساحات الحياة حسب متطلبات

العصر الراهن. هذه هي الغاية الأولى من نزول القرآن الكريم.

درجة الفقيه والمتكلم

إن الفقيه يقوم بتنقيح علم الأحكام، كما أن المتكلم يهتمّ بتوضيح علم المجادلة. يقول الإمام الغزالي:

"*درجة الفقيه والمتكلم متقاربة، لكن الحاجة إلى الفقيه أعم، وإلى المتكلم أشد وأشد. ويحتاج إلى كليهما لمصالح الدنيا. أما الفقيه فلحفظ أحكام الاختصاصات بالمآكل والمناكح. وأما المتكلم فلدفع ضرر المبتدعة بالمحاجّة والمجادلة، كيلا يستطير شرهم ولا يعم ضررهم*".[١٣]

القرآن الكريم جامع للشريعة والطبيعة

والحاصل أن القرآن الكريم يقوم بهداية النوع البشري في كل من الأمور الشرعية والتكوينية (الطبيعية). فهو كتاب جامع للشريعة وللطبيعة، عجزت عن الإتيان بمثله العرب والعجم. فيجب علينا أن نقصد في كل منهما طريق القصد حتى لا نكون معرقلين سبيل الهداية والرشد. وقد وصفنا الله تعالى بأننا "خير أمة" لأننا نقوم بقيادة العالم إلى سواء السبيل. وهذه القيادة هي التي تطلب منا اليوم أن نأخذ بحظ وافر من هذه العلوم الحديثة، لأن الأمم كلها قد استقت هذه العلوم أربعا في أربع حتى سكرت

---

[١٣] نفس المرجع السابق: ص٤٠.

وسدرت. فيجب على كل من ينتمي إلى الإسلام أن يتحمل عبء هذه المسئولية العظمى في ضوء القرآن الكريم فيؤدي ما هو واجب عليه.

حاجة العالم إلى ثورة في التفكير

من أهم الواجبات على المسلمين في العصر الحاضر أن يحرزوا طول الباع في العلوم العصرية ويدرسوها بإمعان وجدّية ليطهّروها من أدناس الإلحاد وجراثيم المادية، ويقوموا بشرحها وتفسيرها من الوجهة الإيمانية، لأن هذا هو السبيل الوحيد لإعلاء كلمة الله في أرضه وإخراج العالم من ظلمات بعضها فوق بعض. والمسلمون هم الذين يستطيعون أن يؤدوا هذه الفريضة العظمى لأنهم وحدهم حاملو الرسالة الإلهية والنور الرباني. فإننا نرى العلماء الطبيعيين يتحيرون بأنفسهم في تعليل سديد أو تفسير معقول لهذه النظم المدهشة المبعثرة في أرجاء هذا الكون الهائل. لأنهم يحاولون تعليلها من الوجهة المادية البحتة وهي تأبى عليهم ذلك. ولذلك فإن كثيرا من العلماء -عددهم مرموق- ليسوا قانعين بالتفسير المادي للمظاهر الكونية ونظمها. ولكن لما يأتيهم ما يطمئن به قلوبهم من الحلول البديلة من الوجهة الدينية. فإنهم حائرون كذلك في هذا المجال.

فيجب على المسلمين أن يعرفوا مكانتهم ووظيفتهم في هذا العالم ويتأهبو لمباشرة خطوات عملية في هذا الميدان. ولايتمّ هذا العمل ما لم يتم إصلاح الناس في أفكارهم ونظرياتهم. ولكن قبل إحداث الثورة الفكرية في العالم البشري لابدّ من إحداث الثورة في تفكير المسلمين أنفسهم. ولا يتحقق ذلك إلا إذا قام المسلمون بتنظيم جماعة منهم خاصة تفرغ لهذه

الفريضة العظمى . وإن تهاونوا في القيام بهـذه الفريضـة حاسبهم الله حسـابا شديدا :

فالحاجة داعية اليوم إلى جهاد علمي فيجب علينا نحن المسلمين أن نستعد له ، فقد أخرجنا الله تعالى لهداية النوع البشري . كما قال تعالى :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . ﴾ آل عمران : ١١٠

ويقول القرآن الكريم مخاطبا النوع البشري :

﴿هذا بلغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب . ﴾ إبراهيم : ٥٢

وقال تعالى :

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . ﴾ الزمر : ٢٧

المحاضرة الثالثة

إذا الشمس كوّرت وإذا النجوم انكدرت

الأجرام السماوية تشهد على القيامة

وقفة سريعة على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

في ١٧ يوليو ١٩٩٤م ابتدأت سلسلة من الانفجارات العنيفة في العالم السماوي، واستمرت إلى ٢٢ يوليو ١٩٩٤م، والتي حدثت بسبب تصادم المذنب شوميكر - ليوي ٩ بالمشتري - أضخم الكواكب السيارة في نظامنا الشمسي. فإن إحدى وعشرين قطعة من المذنب المذكور ما زالت تتصادم بين الفينة والفينة بسطح المشتري وتحدث انفجارات عنيفة في الفترة من ١٧- ٢٢ يوليو ١٩٩٤م. وكانت القطعة الأولى التي سقطت على سطح المشتري مثل الكرة النارية الهائلة، وسرعتها تقدر بمائتي ألف وتسعة آلاف كيلو متر، وقطرها يبلغ نحو ألف وتسعمائة وثلاثين كيلو متراً. وقد نجم عن هذا الانفجار قدر ضخم من الغازات الحارة تقدر طاقتها بمائتي ألف ميغاطن TNT. كما أنه أسفر عن بقعة سوداء على سطح المشتري تعادل نصف قطر الكرة الأرضية، ولا تزال هذه البقعة مشاهدة إلى سنة كاملة.

وكانت هذه القطعة الأولى التي تسمى A أصغر بعشر مرات من القطع التي سقطت بعدها. وكما صرح العالم الفلكي ليوي إن مثل هذه الحادثة تقع مرة واحدة في كل ألف سنة.

النسبة بين المشتري والأرض

إن المشتري هو الكوكب الخامس في نظامنا الشمسي وأضخمها كذلك، وهو أكبر من أرضنا بـ ٣١٨ مرة، وقطره يبلغ نحو ١٤٢٠٠٠ كيلو متر، بينما قطر الأرض لا يزيد عن ١٢٨٠٠ كيلو متر. وهو يكمل دورته على محوره في قرابة عشر ساعات وحول محوره في اثنتي عشرة سنة وفقا لتقويمنا الغريغوري.[1]

نتائج التصادم

ماذا كان الوضع فيما إذا حدثت تلك الانفجارات على الأرض؟ وماذا أسفرت عنه على الأرض؟ هذه هي الأسئلة التي يتحاشى العلماء عن الإجابة عليها. ولكن المنجّمين يتنبئون بخصوص الانفجارات بأنها ربما تسبب في التغير في الفصول وفي أمواج البحار، كما أنهم يتوقعون كذلك أن الغلبة والسيطرة تحصل للاعتقاديين والمتدينين، وما إلى ذلك.

هذا إلى أن كثيرا من الفلكيين كانوا يرفضون اصطدام المذنب بالمشتري، وكانوا يعالجون الموضوع بالمماطلة والتخمينات. على أن العالم

---

(١) *Encyclopaedia Britannica*, 1983, Vol.10, P.346.

الفلكي شوميكر - الذي ينسب إليه ذلك المذنب - وأصحابه كانوا قد أبدوا تنبؤاتهم الصارمة حول التصادم، كما أنهم كانوا قد حددوا - من قبل - مواعيد اصطدام القطع الجبلية الحادية والعشرين للمذنب، ثم كان التصادم على المواعيد المحددة.

حادثة مزعجة

وعلى كل، فإن التصادم الأخير للمذنب شوميكر - *ليوي* ٩ حادث فلكي منفرد ذو بال خطير والذي أصبح مركز التفات الناس واهتماماتهم في هذه الأيام. وقد كثرت حوله الأسئلة و الأجوبة في الأوساط المختلفة. فإن بعض المتدينين يعتبرونه علامة لاقتراب الساعة، كما أن الأوساط الحديثة لا تعير دعواهم أهمية إلا مثل كلام من خبل عقله و فسد ذهنه. ولكن الحقيقة التي لابد من الاعتراف بها هي أن هذا الحادث الكوني قد أوقع النوع البشري في قلق واضطراب، وإن كانت الكارثة قد أخطأتنا للآن. ولكن الأسئلة التي تنتعش في أذهان الإنسان لا بد من الإجابة عليها.

تصديق التصريحات القرآنية

فهيا بنا لنقف عند الصحيفة السماوية الأخيرة - القرآن الكريم - لنستنبط منها المعارف التي تتعلق بهذا الخصوص، ونلقي نظرة على توجيهاتها التي تزودنا بها في هذا الصدد، ونشاهد كيف تحل ألاغيز الكون؟ وكيف تزيح القناع عن أسرار الحياة؟

ولكن يجب علينا قبل أن نستعرض الحقائق القرآنية الأبدية أن يظل

صوب أعيننا إلى بعض الحقائق الكونية من الوجهة العلمية نفسها، والتي انكشفت لنا بعد تجارب بشرية مرهقة، ومشاهدات طويلة، ودراسات مرهقة. وهذه الحقائق هي نفس ما أنشأه القرآن الكريم من الفكرة العلمية والوجهة الكونية. فإن القرآن الكريم يدعونا إلى أن نقوم بإمعان النظر في النظام الكوني ليثبت لنا صدق دعواه، ويحثنا على دراسة الظواهر الكونية والنظم العاملة في تركيباتها ليتجلى لنا حقانية نبوءاته العلمية، وتتبدى للعالم واقعيته وعظمته. وعلى هذا فإن الاكتشافات الحديثة تساعد في إثبات صدق الدعاوى القرآنية وواقعيتها. كما أنها تبرز أمامنا تصريحات القرآن واضحة جلية مثل وضح النهار.

العوامل الأربعة في فناء الكون

نريد في هذه العجالة أن نستعرض سريعا بعض الحقائق القرآنية الأبدية التي تتعلق بالاصطدام بين الأجرام السماوية والأرض، وظلام الشمس (انتهاء مادتها الوقودية). ولهذه الظواهر الفلكية أهمية كبرى من حيث النظريات العلمية الحديثة. وبعبارة أخرى، إن النبوءات العلمية القرآنية أصبحت متيسرة للفهم في ضوء الاكتشافات الحديثة أكثر من أيّ وقت مضى. فلذلك نريد أن نناقش هنا أربعة أنواع من الاحتمالات التي يمكن أن تسبب في وقوع القيامة من الوجهة العلمية الحديثة:

١- أن يكون هناك تصادم المذنبات والكُويكبات بالكرة الأرضية والذي يسفر عن ارتجاف الكرة الأرضية وفنائها.

٢- أن يكون هناك اصطدام بين النجوم نفسها، والذي يؤدي إلى دمار

محيط شامل. وهذا الاحتمال يبدو مؤكدا في ضوء *نظرية الانفجار العنيف* الراهنة Big-Bang Theory.

٣- أن يكون هناك زوال تدرجي في أضواء الكواكب من أمثال الشمس والذي يفضي إلى زوال النظام الشمسي بكامله. كما أن العالم الشهير جورج غيمو ناقش هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه *The Birth and Death of the Sun.*

٤- أما الاحتمال الرابع فهو *القانون الثاني للديناميكا الحرارية* The Second Law of Thermodynamics وجهة النظر الطبيعية، والذي يشير إلى النهاية المحتمة لهذا الكون. و تلك النهاية هي *الأنتروبيا* Entropy. فإن السرعة الهائلة التي يتم بها توزيع الحرارة في هذا الكون، لابد أن تنتهي إلى معادلة درجة الحرارة في جميع مظاهر الكون يوما ما. وتلك الدرجة تكون منخفضة بحيث أن الحياة تصبح مُتعذّرة فيها.

خطر اصطدام المذنبات

أما الاحتمال الأول فإنه مما يبدو عيانا أن الكرة الأرضية مهددة بالمذنبات وبعض الكويكبات المتشردة والتي يمكن أن تدمرها في أيّ حين. فإن بعض المذنبات تدخل في بعض الأحيان في النظام الشمسي Solar System ثم تمر متاخمة من الكرة الأرضية و بعض الكواكب الأخرى، كما أن المذنب هيلي (الذي سمي إثر مكتشفه العالم الفلكي هيلي) يدخل في نظامنا الشمسي مرة في كل ستة وسبعين عاما. وهو كوكب لامع يشاهد بدون واسطة التلسكوب. وقد سجل نجومه ثلاثين مرة حتى الآن. وقد

شوهد لأول مرة في ٢٤٠ ق م، وللمرة الأخيرة في عام ١٩٨٦م.[٢]

وهناك مذنب آخر مرّ بمجرد مائة ألف وواحد وثلاثين ألف ميل بالقرب من الكرة الأرضية، وذلك في عام ١٩٤٦م.

التصادم بين الأرض والكويكبات

وعلاوة على المذنبات فإن هناك بعضا من الكويكبات Asteroids والشهب Meteorites تتصادم حينا بعد حين بالكرة الأرضية وتحدث في سطحها هوّات وفجوات. ففي عام ١٩٠٨م سقط كويكب في سيبيريا، وكان الانفجار الناجم عنه يعادل قوة انفجار اثني عشر من الميغاطن من القنبلة الهيدروجينية، والذي أسفر عن تيارات مزعزعة سجلت في إنكلترا. هذا إلى أن الانفجار قد استأصل جميع الأشجار الموجودة في المناطق المجاورة التي تمتد مساحتها على ثمانين كيلومترا. وقد تناثرت أجزاء الغبار في سائر أنحاء العالم. ومن المحتمل بنسبة ١٢٪ إلى ٤٠٪ أن تحدث حادثة أخرى من هذا القبيل خلال خمس وسبعين سنة الآتية.[٣]

كما أن هناك كويكبا آخر قطره ٢٥ مترا يحمل قوة واحد من الميغاطن من القنبلة يدخل الكرة الفضائية لأرضنا كل ثلاثين عاما مرة واحدة. وفي عام ١٩٣٧م توجه الكويكب هرمس إلى الأرض بسرعة ٣٥٥٠٠ كيلومتر في ساعة واحدة، ولكنه انحرف عن الأرض. وقد اقترب منها بقدر لم يبق

---

(٢) *Oxford Illustrated Encyclopaedia*, 1993, Vol.8, P.63.

(٣) *Readers Digest*, January, 1989.

بينه وبين الأرض إلا مثل مسافة القمر بمرتين وهـذه المسـافة لا اعتبـار لـه مـن الوجهة الفلكية. وكان قطره لا يزيد عن كيلومتر. ولـو كـان هنـاك تصـادم بينه و بين الأرض لنجمت عنه قوة تعادل قوة انفجار مائة ألـف ميغـاطن مـن القنبلـة. وإذا تصـادم بـالأرض كويكـب أكـبر بعشـر مـرات مـن كويكـب هرمس فسيلقي ذلـك كيـان العـالم إلـى التهلكـة. فـإن الكويكبـات التـي تواصل دورانها بين المريخ والمشتري والتي تشكل صورة قطـاع يبلـغ عددهـا إلى عشرة آلاف من الملايـين، وهـي تـتراوح في الحجـم مـن ذرة صغـيرة إلـى أكوام جبلية. وأكبرها سيرس وتمتد مساحتها على ١٠٢٥ كيلومترا.[٤]

يظن علماء الفلك بصدد ذلك القطاع من الكويكبات الذي يوجـد بـين المريخ والمشتري أنه قِطَع كوكب سيار تكسر وتناثر في السماء.

إذا دكت الأرض دكا دكا

ولو أصبحت هذه الجبال الطائرة متشردة وتصـادمت بـالأرض في حـين من الأحيان لتدمرت الأرض بجميع ما فيها من الموجـودات. ومـن المحتمـل كذلك أن تتصادم الأجرام السماوية ببعضها البعض في موعد السـاعة، كمـا سنبيّن ذلـك فيمـا بعـد. وربمـا ينـتزع الله تبـارك وتعـالى قـوة التماسـك والتجاذب من تلك الأجرام السماوية في ذلك الوقت. وعلى كل، فإننـا إذا درسنا الآيات القرآنية الآتية في ضوء التفصيلات المذكـورة آنفـا فسـيتضح لنـا معناها مثل فلق الصبح، ولا تحتاج إلى تفسير أو شرح مزيد:

---

[٤] نفس المرجع.

﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة.﴾ الحاقة: ١٣-١٦

وقال تعالى: ﴿إذا رجت الأرض رجا، وبست الجبال بسا، فكانت هباء منبثا.﴾ الواقعة: ٤-٦

وقال تعالى: ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا.﴾ المزمل: ١٤

وقال تبارك وتعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها.﴾ الزلزال: ١

وقال تعالى: ﴿كلا إذا دكت الأرض دكا دكا.﴾ الفجر: ٢١

الانفجار الكوني العظيم

أما الاحتمال الثاني أي التصادم فيما بين الأجرام السماوية (الكواكب والسيارات)، فينبغي لنا – قبل كل شيء – أن نكون على إلمام بنظرية خلق الكون. فإن القرآن والعلم كليهما يتفقان على أن الأجرام السماوية كلها كانت مُنضمة قبل أن تأتي إلى صورتها التي هي عليها الآن. فيقول العلم إن هذا الكون مع جميع أجرامه كان في صورة كرة نارية أو غازية حارة، ثم كان فيها انفجار عظيم فانتشرت الكرة النارية في صورة قطَع صغار التي تشكلت فيما بعد في شكل الكواكب والسيارات. وهذا هو ما يطلق عليه في مصطلح العلم "نظرية الانفجار العنيف" Big-Bang Theory والتي أنشئت في عام ١٩٢٧م. فإن هذه النظرية تقول إن هذا الكون (عالم المجرات والنجوم) في اتساع دائم. ثم إذا توصل هذا الاتساع إلى منتهاه ابتدأت

عملية تقلص الكون بسبب التجاذب فيما بين الأجرام السماوية، فتتقارب فيما بينها، حتى إذا توصل هذا التقارب إلى أقصاه وقع تصادم عنيف فيما بينها. وهكذا تطوى تلك الأجرام السماوية في صورة حادثة عظيمة، ثم تعود إلى وضعها القديم أي في صورة كرة غازية.[٥]

الحقائق القرآنية

وهذه النظرية أكثر تداولا بين العلماء في هذه الأيام، والتفصيلات التي ذكرناها آنفا بخصوص نظرية العلم الحديث إنها تدل على أربع حقائق:

١- كانت في الماضي السحيق كرة غازية عظيمة وجد منها هذا الكون.

٢- هذه الأجرام السماوية ظهرت بسبب انفجار عنيف.

٣- إن هذا الكون آخذ في الزيادة والاتساع.

٤- ثم تعود هذه الأجرام نهائيا إلى وضعها القديم فتتصادم.

هذه النظريات كلها تؤيد تصريحات القرآن الكريم الذي قرر هذه الحقائق الأبدية قبل قرون. ولكن هذا الانفجار العنيف لم يحصل بنفسه، وإنما حصل بتدبير الله تبارك وتعالى وفق التصريحات القرآنية. فإن الله تبارك تعالى يقول:

﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما.﴾
الأنبياء: ٣٠

---

(٥) انظر: Encyclopaedia Britannica, 1983, Vol.2, P.10.

وكانت هذه المادة المشتركة للأرض والسماوات في صورة غازية ملتهبة، التي يعبر عنها القرآن الكريم بلفظ *الدخان* وهو تعبير بليغ يضمر المعاني والحقائق:

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان.﴾ حم السجدة: ١١

ويقول الله تبارك وتعالى عن اتساع الكون: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون.﴾ الذاريات: ٤٧

أما التصادم فيما بين الأجرام السماوية فهناك آيات كثيرة تدل على هذه الحقيقة بأساليب متنوعة، و نورد هنا بعض الآيات القرآنية على سبيل المثال والتي قد تبين صدقها وواقعيتها أمام الأعين في ضوء الكشوف العلمية الحديثة، فلسنا بحاجة إلى مزيد من التعليق:

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا إنا كنا فاعلين.﴾ الأنبياء: ١٠٤

وقال تعالى: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.﴾ النحل: ١٢

فإذا جاءت الساعة تدمرت الحياة، وتمزق الكون، وانتثرت الكواكب، وانفطرت السماوات وبست الجبال:

﴿فإذا النجوم طمست، وإذا السماء فرجت، وإذا الجبال نسفت.﴾
المرسلات: ٧-٩

ومن الواضح البين أن الذي قدر على خلق شيء فهو أقدر على

إفناءه. وهذه الأرض والسماوات والحياة والكون جميعا في قبضة قدرته، فإذا شاء استبدل هذا الكون بكون جديد. وهذا ليس بمستحيل عقليا:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شئ عظيم.﴾ الحج: ١

النجوم: حياتها ومماتها

أما الاحتمال الثالث، فإن النجوم من أمثال الشمس تفقد طاقاتها شيئا فشيئا على مر الأيام، ولابد أن يأتي يوم تفقد فيه جميع طاقاتها وتصبح ميتة ومظلمة. ومن المعلوم أن موت نجم أو ظلامه هو موت للنظام الشمسي بأسره. إذ أن الحياة بجميع أنواعها تتوقف على ضوء الشمس وطاقاتها. فإذا انعدم ضوء الشمس فلا تمطر السماء، ولا تنبت الأشجار بالمواد الغذائية. وبالتالي تستحيل حياة الإنسان والحيوان والنبات والأشجار.

ومن المشاهد أن النجوم والكواكب أيضا تحيا وتموت في هذا الكون الهائل. كما أن الكشوف الحديثة قد أزالت القناع عن كثير من أسرار العالم السماوي. وإن كثيرا من العلماء قد كتبوا شيئا كثيرا حول هذا الموضوع وتركوا وراءهم أكداسا من المعارف.

موت الشمس

لقد ألف العالم الشهير جورج غيمو كتابا أسماه "*ميلاد الشمس وموتها*". وقد ذكر فيه – وهو يبحث بحثا مبسوطا حول التركيبات الطبيعية للشمس والكواكب الأخرى وبنيتها الكيميائية – أن هذا الإشعاع الحاد

والطاقات الهائلة التي توجد في الشمس إنما ترجع إلى *تفاعلها الحراري النووي* (Thermonuclear Reaction). فإن الجزء الأكبر من الشمس يتألف من الغازة الهيدروجينية، كما أنها تحتوي على الدرجة الحرارية التي تقدر بخمسة عشر مليونا إلى عشرين مليونا. ومن أجل هذه الحرارة الزائدة تحترق غازتها الهيدروجينية- بسبب التفاعل الحراري النووي - وتتحول إلى *هليوم*. ولابد أن يأتي يوم تنفد فيه غازتها الهيدروجينية فتكون باردة كجسد ميت. وكلما اقتربت مادتها المحترقة من الانقضاء ازدادت الشمس تلهبا وسطوعا، حتى إنها تكون أكثر تلهبا وضياءً عند زوال مادتها مثل الشعلة الموشكة على الانطفاء، فيكون إشعاعها أكثر بمائة مرة بالنسبة لإشعاعها الحالي. فلا يبقى هناك أي كائن حي على وجه الأرض بسبب الحرارة الشديدة المحرقة. وتتحول المحيطات والبحار إلى الأبخرة. فإذا أصبحت باردة صارت حرارتها أقل بمائة مرة من الحرارة الحالية. فتكون *قزما أبيض* (White Dwarf) وهذا هو موت الشمس.[٦]

المستسعرات

ولكن جورج غيمو والعلماء الآخرين يواسون الناس بأنه قد بقي الآن ألف مليون سنة من عمر الشمس، فلا داعي إلى القلق والاضطراب. ولكنهم يقولون توّا وفي النَفَس المباشر أن النجوم تنفجر عادة بانفجارات

---

[٦] الملخص من: George Gamow, *The Birth and the Death of the Sun*, New York, 1956, P.140.

وانظر كذلك: *Encyclopaedia Britannica*, Vol.17, P.808.

سرية ، وتنتشر مادتها في الفضاء . وهذه الكواكب المنفجرة تسمى *المستسعرات* Novae . وقد عجز العلماء حتى الآن من الوقوف على الأسباب الحتمية لهذه الانفجارات السرية . وعلى كل ، فإن سلسلة الحياة والممات مستمرة في عالم النجوم والكواكب . وعلى هذا فإن الشمس التي هي نجم من النجوم يمكن أن تنفجر بانفجار مذهل في يوم من الأيام . وقد أبدى جورج غيمو نفسه هذا الاحتمال ، فيقول :

"إننا نشاهد أن آلاف الملايين من النجوم والكواكب منتشرة في عرض السماء ، ومن بين تلك النجوم نشاهد نجما هادئا مماثلا لغيره من النجوم . ولكنه يتفرقع فجأة بانفجار عنيف في بضع ساعات . فينتعش في أذهاننا مباشرة سؤال هام وهو أنه يمكن أن يحدث مثل هذا الحادث بالشمس اليومَ . . . أو غدا . . . أو في السنة الآتية . فإذا أصبحت الشمس مستسعرة Nova في يوم من الأيام ، فإن تلك الساعة تكون خافضة رافعة ، مهلكة مدمرة ، وتتحول الأرض وسائر الكواكب الأخرى يومئذ فجأة إلى غاز لطيف . ويحدث كل ذلك بسرعة هائلة حتى إن أحدا لا يكاد يشعر به . أما إذا كان العلماء الفلكيون موجودين في النظام السياري (الكوكبي) لنجم آخر فإنهم يشاهدون أنه قد طلع نجم مستعر". (٧)

---

(٧) George Gamow, *The Birth and the Death of the Sun*, P.159.

ثم يكتب المؤلف بمزيد من الإيضاح :

"إن هناك احتمالات بينة لأن تصبح الشمس مستسعرة Nova مرة واحدة في يوم من الأيام. والواقع أن عشرين نجما من نظامنا النجمي ينفجر كل سنة. فإذا كان عمر هذا الكون حوالي بليون سنة فإنه قد تم انفجار أربعين بليون من النجوم عبر هذه المدة السحيقة". [٨]

الاكتشافات القرآنية

وهذه الحقائق المذكورة هي إن دلت على شيء فإنما تدل على صدق التصريحات القرآنية وحقانيتها. وما أعظم صدق القرآن و هو يقرر هذه الحقائق قبل أربعة عشر قرنا :

﴿إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت.﴾ التكوير : ١-٢

فإن القرآن الكريم قد استخدم لفظ *"التكوير"* في هذه المناسبة للشمس، وهو يدل على معنيين : أحدهما اللّف، وثانيهما الرفع والإزالة، والحقائق السالفة الذكر تؤيد كلا المعنيين. كما أنه استخدم لفظ *"الانكدار"* للنجوم، وهو أيضا يدل على معنيين : أحدهما الانحدار والتساقط، وثانيهما الظلام وذهاب النور. [٩] ويقول الله تعالى في موضع آخر:

---

[٨] نفس المرجع.

[٩] معجم ألفاظ القرآن الكريم، مصر.

﴿إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت .﴾ الانفطار : ١-٢

وعلى كل ، فإن القرآن الكريم قد ألقى الضوء على وقوع القيامة وفناء الكون في مقامات شتى وبألفاظ مختلفة وأساليب متنوعة . وهذا التنوع في الأساليب إنما جاء من قبيل إبراز النواحي المختلفة لموت الأجرام السماوية وفنائها ، ليتنبه الإنسان من رقدة غفلته . والواقع أن دعاوى القرآن الكريم وتصريحاته كلها مطابقة للواقع ومتلائمة مع المشاهد . وإن أي تصريح من تصريحاته لا يجانب الحق والواقع . لأن هذا الكلام ليس من جنس كلام البشر ، وإنما هو من كلام العليم الخبير . وهو الذي خلق هذا الكون ، فهو يعلم جميع أسرار الكون وعجائبه .

والحقيقة أن الله تعالى خلق هذا الكون وهذه السماوات لغاية كريمة وهدف نبيل . وهذه المستسعرات هي خير نموذج على كيفية وقوع القيامة ونهاية العالم . فإن الله تبارك وتعالى إذا انتزع قوة التماسك والتجاذب Gravitation من هذه الأجرام السماوية فإنها تتصادم ببعضها البعض وتتمزق في آن واحد .

وهذه هي بعض أسرار هذا الكون التي يكشف عن غطاءها الكتاب الذي ظهر صدقه وإعجازه العلمي باهرا في هذا العصر العلمي . وهكذا يصدق العلم الحديث جميع ما ادعاه القرآن الكريم قبل قرون . وسينكشف مزيد من أسرار هذا الكتاب كلما يتقدم العلم ، لأنه قد أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض .

"الأنتروبيا" قانون محكم للطبيعة

أما الاحتمال الرابع، فإن *الأنتروبيا* Entropy تبدو قاعدة محكمة للفطرة من الوجهة الطبيعية، وتسوق إلى النهاية المحتمة لهذا الكون. وضابطة *الأنتروبيا* هي *القانون الثاني للديناميكا الحرارية*. ومقياس *لاختلال النظام* A Measure of Disorder.

فإن السرعة الهائلة التي تستهلك بها الشمس طاقتها، فإنها سوف تؤدي إلى أن تتوزع طاقتها كلها في نظامنا الشمسي، بحيث أن درجة الحرارة تتعادل في جميع السيارات ومظاهرها. ثم لا يبقي أي شيء حارا ولا باردا بسبب تماثل درجة الحرارة. فإننا إذا خلطنا دلوين من الماء أحدهما حار والآخر بارد فإن درجة حرارتهما تكون مماثلة في ثوان. وهذا هو الوضع الذي يؤول إليه الكون. وقد كتب العالم الشهير السير جيمز جينس Sir James Jeans باحثا حول هذا الموضوع:

> *"إننا إذا تغاضينا عن النتائج التي يتقدم بها علم الهيئة فإن قانون علم الطبيعة الذي يعرف* بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية *إنما يتنبأ بأن هذا الكون ليست له إلا نهاية واحدة وهي الفناء بسبب قلة الحرارة. يعني أن توزيع الحرارة يكون متساويا في جميع مظاهر الكون فتكون درجة الحرارة سواسية في جميع المظاهر. وهذه الدرجة تكون منخفضة بحيث يستعصي البقاء فيها".* [١٠]

---

[١٠] Sir James, Jeans, *The Mysterious Universe*, Cambridge, 1935, P.11.

وكما تقول موسوعة أكسفورد :

"*إن الاتساع العظيم في الطاقات علامة على الاضطراب الهائل، فستكون الفوضى هائلة كذلك. إن الذرات تسيطر على حدود واسعة من الطاقة في درجة الحرارة المرتفعة، فتكون الفوضى واسعة كذلك. وإننا إذا قمنا بتطبيق هذا القانون في هذا الكون فإن القياس بأن العالم المادي كله آخذ في الفوضى واختلال النظام لا يكون باطلا. ومن أجل ذلك فإن العالم الفلكي البريطاني آرثر ايدنغطون Arthur Eddington (١٨٨٢-١٩٤٤) يعتبر الأنتروبيا سهم الوقت.*"(١١)

وكما تذكر الموسوعة البريطانية :

"*إن الفوضى مستمرة في الزيادة والاتساع شيئا فشيئا في الكون، وهكذا فإن الكون يتنزل وينهار شيئا فشيئا.*"(١٢)

التخطيط الرباني للكون

وعلى كل، فمن أي ناحية نتفكر في هذا الكون فإن الأمر الذي يفاجئنا في كل مفترق هو نهايته الحتمية التي لا مفر منها. والحقيقة أن الله تعالى قد جعل لكل شيء ضابطة مرسومة وقدرا مقدورا. وإن هذا الكون سائر وفق تلك الضابطة و ذلك القدر، كما قال تعالى :

---

(١١) *Oxford Illustrated Encyclopaedia*, 1993, Vol.1, P.100.

(١٢) *Encyclopaedia Britannica*, 1983, Vol.3, P.911.

﴿وخلق كل شئ فقدره تقديرا.﴾ الفرقان: ٢

وقال تعالى: ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا.﴾ الأحزاب: ٣٨

وقال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.﴾ الأعلى: ١-٣

فمن الحقيقة الثابتة أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق جميع ما في الكون، وهو ربه ومدبره. وهو الذي قدر لكل ما في العالم من الذرة الصغيرة إلى النظام الشمسي الهائل قدرا مقدورا، وضابطة محكمة. وهو الذي يسيّر الكون المادي وفق تلك الضابطة. وهذا الكون بجميع ما فيه مقيد بضوابطه المرسومة من الوجهة الطبيعية. ولا يستطيع شيء أن ينحرف عن أوامره، وإنما الجميع مكبلون بالجبر المادي:

﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.﴾ الأعراف: ٥٤

متى تأتي الساعة

أما موعد الساعة فإنه لا يعلمها إلا الله. لأنه هو الذي عالم بجميع ما في الكون من سرائر وخفايا، ورموز وعجائب. ولكن الساعة لا تأتي إلا بغتة، فلا تمهل أحدا شيئا، ولا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. وقد ظهرت أمارات الساعة، فما يدريك لعل الساعة تكون قريبا:

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السماوات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة.﴾ الأعراف: ١٨٧

وقال تعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب، إن الله على كل شيء قدير.﴾ النحل: ٧٧

وقال تعالى: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها، لتجزى كل نفس بما تسعى.﴾ طه: ١٥

وقال تعالى: ﴿وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا.﴾ الأحزاب: ٦٣

فالمخلص أن دخول المذنبات والكويكبات في نظامنا الشمسي وتصادمها وانفجارها إنما هو إعلام من الله تبارك وتعالى وإنذار منه، لكي يتعظ الإنسان فيتجه إلى خالقه ومالكه، ويقوّم من أخلاقه وأعماله، وسلوكه وأفكاره. فإن الساعة إذا جاءت فلن يبقى للعمل مجال، ولا لاستدراك ما فات مقال. وليس للإنسان بعد ذلك إلا أن يقلب كفيه على ما قدم، و يبدي تحسره على ما فات، ولات ساعة مندم:

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ.﴾ الأنعام: ١٠٤

المحاضرة الرابعة

آيات الربوبية في عالم النباتات وبعض ألغاز أحيائية

إن الله تبارك وتعالى رب العالمين والوكيل عليهم. وقد وسعت ربوبيته كل مظهر من مظاهر هذا العالم البهيج. والمراد بالربوبية هو الأعمال الإلهية التي تجري في هذا الكون وتتحكم في مظاهره تربيةً للمخلوقات. إن الله تعالى كما أنه رب الحيوانات والنباتات فهو رب الجمادات والسماوات كذلك. ففد ورد في القرآن الكريم بكل بداهة:

﴿وهو رب كل شيء.﴾ الأنعام: ١٦٤

وقال تعالى: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق.﴾ الصافات: ٥

المستفاد أن ربوبية الله تعالى محيطة بالكون المادي بأسره. وليس هناك أي شيء أو أي مظهر من مظاهر الطبيعة مستبدا بأموره، وإنما الجميع

مكبلون بالقوانين المادية. ويدخل في ذلك كل ذرة من الذرات الصغار، والكرات السماوية، والنباتات، والحيوانات، وجميع الأشياء المادية والطاقات المتواجدة، حتى الحركة والسكون.

العناصر الأربعة للربوبية

قد ذكرنا آنفا أن الربوبية هي الأعمال الإلهية في الكون تربيةً للمخلوقات. ولها عناصر أربعة:

١- الخلق، وهو إيجاد الشيء بعد أن لم يكن.

٢- التسوية، وهو تقويم النظام الجسدي للأشياء المادية وتعديله.

٣- التقدير، وهو تقرير الضوابط الطبيعية الخاصة لجميع الخلائق.

٤- الهداية، وهو توفيق الخلائق للسير على ضوابطها الطبيعية الخاصة.

وقد جمعت الآيات الآتية من سورة الأعلى هذه العناصر الأربعة. كما يقول الله تبارك وتعالى:

﴿سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى.﴾

الأعلى: ١ - ٣

ما أجمع هذه الآيات، وما أوضح في معناها وفحواها على هذا الإيجاز الشديد. هذه هي أربع كليات إلهية تحيط بسائر الكون وجميع ما فيه من المظاهر. والحقيقة أن جميع مظاهر هذا الكون المادي من آثار ربوبية الله تعالى. ولابد لتفهم الأشياء المادية على وجه البصيرة من إجراء

الدراسات من هـذه النواحـي الأربعـة وفـق الرؤيـة القرآنيـة . وبذلـك تظهـر أمامنا آثار الصنعة الفائقة والدقـة الرائعـة لخلاّق الكـون ، ويتـأتّى لنـا المعرفـة الصحيحـة بـه . وذلـك لأن معرفـة عظمـة الصـانع لا يتـم إلا باسـتعراض صنائعه ورسومه .

أهمية مطالعة الربوبية

إن دنيا الحيوانات والنباتات تعطينا بيانا واضحا عـن عجـائب صنـع الله تعـالى وبدائـع إبداعاتـه ، مما يحمـل بـدوره معـاني البصيرة لـلرجل العـامي والعـالم علـى السـواء . وذلـك أن الرجـل العـالم كمـا أنـه يتحـير ويـتربّح بمشاهدة كمال صنعه تعالى وجمال آثاره المبثوثة ، فإن الرجل العامي كذلـك لا يكـون بمنجـاة عـن التـأثر بنضـارة دنيـا الحيوانـات وزخرفتهـا مهمـا كـانت مشاهدته غير مركّزة . ويرجع كل ذلك إلى الاختلافات المتلونة التي قدرهـا الله تعـالى في دنيـا الحيوانـات والنباتـات ، حتـى إن عقـل الإنسـان ليؤخـذ بالدهشة والحيرة عند مشـاهدة تلـك المظـاهر . ويعجـز عقلـه عـن إيجـاد أي تفسير معقول لتلك المخلوقات الكثيرة المتنوعة والنظم المحيرة العاملة فيها إلا أن يعترف بيد إلهية مبدعة . والعلم الذي يقوم بدراسة مرتبة لأنواع الأحياء في هذه الأيام هو الذي يسمى بعلم الأحياء أو البيولوجيا Biology ، وهو مـن العلـوم الطبيعيـة الرئيسـية . ويسـهل بـإجراء الدراسـات حـول الحيوانـات والنباتات من خلال هذا العلم أن يبلغ الإنسان إلى الإدراك الصحيح لربوبية الله تعالى وجه البصيرة .

وناهيك بهذا العلـم أهميـة وجلالـة أن الآيـات الأولـى التـي أنزلهـا الله

تعالى على رسوله الكريم - صلى الله عليه وسلم - تتحدث عن مطالعة ومشاهدة المخلوقات الإلهية، وخاصة ما يتعلق منها بخلق الإنسان. كما قال تعالى:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق.﴾ العلق: ١-٢

فهذا الوحي الإلهي الأول يذكر الرب بحيثية الخالق ويدعو النوع البشري إلى مطالعة المخلوقات الإلهية. يعني أنه إذا شاء أحد أن يعرف حقيقة ربوبية الله تعالى فلا عليه إلا أن ينظر في مخلوقاته. لأنه لا ينبئك بعظمة الصانع وجلالة الخالق مثل استعراض مصنوعاته ومخلوقاته. هذا إلى أن المشاهدة يفضي إلى العلم والمعرفة، وهي بدورها تثبت الإيمان في النفوس. ومن كان إيمانه ثابتا مستقيما فهو لا يُضَلَّل في أودية الفكر والنظر، ولا تزلزل أعاصيرُ الإلحاد واللادينية أقدامَه المستقيمة. الأمر الذي جعل القرآن الكريم يوجّه دعوات أكيدة إلى إمعان النظر في المخلوقات الإلهية ونظمها في مناسبات شتى.

أعلام الربوبية في المظاهر النباتية

وإذا كنا نحن الآن بسبيل النباتات فإنني أحاول أن أسلط الضوء على بعض النواحي النباتية من الوجهة القرآنية. وكل ناحية من تلك النواحي تقف آية رائعة من ربوبية الله تعالى. وتتجلى فيها دلائل ناصعة لقدرة الله وخالقيته وحكمته في الخلق وتربيته للمخلوقات ورحمته الواسعة وشفقته البالغة عليهم. وهي تكون بدورها شرحا لصدور المؤمنين وعبرة للمنكرين الضالين. فقد بيّن القرآن الكريم أن هذا الكون المادي بجميع ما فيه شاهد

حيّ ودليل ساطع على ربوبية الله تعالى ووحدانيته وخالقيته والذي يقتلع أساس المادية والإلحاد ويثبّت أصل الإسلام والإيمان :

﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون . ﴾ يونس : ٦

وتتجلى ربوبية الله تعالى بأكمل نصاعتها وأبهج صورها في تلك النباتات الكثيرة الألوان والأنواع التي بسطها الله تعالى على وجه الأرض . وقد احتوت المظاهر النباتية المختلفة على آثار قدرة الله الكاملة ، والتي تظهر لكل من يقوم بالتفكر فيها وفي خواصها بمظهر القوانين الإلهية . كما قال تعالى :

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . ﴾ النحل : ١٠ - ١١

أعاجيب القدرة الإلهية والإعجاز القرآني

ومما لا يخفى أن هناك كثيرا من المظاهر الطبيعية والحياتية للحياة النباتية لا يمكن للإنسان أن يطالعها مطالعة عميقة إلا إذا كان عالما بالعلوم الطبيعية . والعلم الذي يقوم بدراسة منظمة للنباتات يسمى علم النبات Botany ، وهو فرع من فروع علم الحياة Biology . وقد ساعد هذا العلم في اكتشاف كثير من الحقائق والمعارف التي تتصل بأحوال النباتات وأفعالها وخواصها ، والتي هي تُحسب من "دلائل الربوبية" أو أن تُعدّ من "أعاجيب

القدرة". ولا يدركها إلا من أوتي بصيرة ثاقبة. أما من جاء وهو أعمى البصيرة فهو يزعم هذه الحقائق والمعارف لاغية، ولا يجد لها مبررا إلا ما يسمّيه بـ "الصدفة".

وأياً كان، فقد اشتمل القرآن الكريم على مبادئ وكليات توجيهية بخصوص مطالعة وتفحص المظاهر النباتية وما يكمُن فيها من الحقائق والمعارف من خلال المنظور الإسلامي. فإذا قام الإنسان بالتفكر في تلك المظاهر من الناحية الطبيعية ومن خلال تلك الأصول والمبادئ فإنه لا يلبث أن تنكشف عليه مصداقية الأصول الربانية. وهي أصول وكليات جامعة لم يكن في مكنة أحد من البشر، وقبل أربعة عشر قرنا، أن يأتي بمثلها من عند نفسه. وكيف يأتي بمثل تلك الأصول إلا من كان خبيرا بجميع أشياء العالم وبما يعمل فيها من النظم الداخلية، وبكل جزء من أجزاءها وما يقوم به من الوظائف. فأصبحت هذه الأصول بمثابة مفاتيح الكنوز المغلقة للحقائق والأسرار النباتية تفتح أبوابا جديدة إلى العلوم والمعارف.

وبمشاهدة هذه المعارف الأبدية يظهر وجه جديد من الإعجاز القرآني أنه ليس إعجازه مقتصرا على الناحية البيانية والأدبية وإنما هو معجزة خالدة من ناحية علومه ومعارفه وما تمتاز به تلك المعارف بالجامعية والكمال. ولقد عجز عن الإتيان بنظيره جميع الآداب البشرية. كما أن هناك حقيقة أخرى عظيمة وهي أن هذا القرآن ليس كلاما يتبرز من ناحية الجامعية والكمال فحسب، بل وإنه يتميز بالحقائق العلمية المحكمة كذلك. وأعني بذلك أن جميع الدعاوى التي يُقدمها القرآن الكريم إنما تكون مبنية على الحقائق العلمية الثابتة التي لا تقبل أي تغيير مهما تطورت العلوم البشرية.

بل إن القرآن الكريم يأخذ جواهر تلك العلوم ومقاصدها الأصلية التي لا يتوصّل إليها الإنسان إلا بعد دراسات مديدة واختبارات متوالية عبر القرون، فيبينها للناس - قبل أن يظفروا بجانب منها - في صورة الحقائق العلمية، وبأسلوب يضرب به على الوتر الحساس للماديين. فكأن هذه الحقائق تستفتح منافذ مغلقة من الفكر والنظر.

وعلى كل فإنني أحاول في هذا البحث الموجز أن أقوم باستعراض سريع لبعض الحقائق القرآنية أو المعارف الأبدية من خلال علم النبات، والتي تقيم بينة واضحة على خالقية الله تعالى وربوبيته، وتقطع دابر المادية.

من يخرج الحيّ من الميّت

فالحقيقة الأولى التي يجب علينا أن نبصرها هي أن الدراسات والتجارب العلمية الطويلة قد أثبتت أن الحياة لا يمكن أن تخرج من العناصر أو الأشياء الميتة، بل إنها لا تخرج إلا من الأشياء الحية. فقد صارت التجارب التي قام بها العالم الطبيعي الفرنسي الشهير "باسجر" Pasture في هذا المجال مسلّمة لدى الدنيا العلمية بأجمعها كحقيقة ثابتة. وكما أنتم تعلمون أن وحدة الحياة هي الخلية Cell، وتكون مشحونة بمادة لزقة متحركة تسمى "البروتوبلازما" Protoplasm في المصطلح العلمي. وهذه المادة توجد لدى الحيوانات والنباتات كلتيهما. ومعنى ذلك أن أجسام الحيوانات والنباتات كلتيهما تكون مركبة بمجموعة من الخانات الصغيرة تسمى الخلايا والتي تكون مشحونة بالبروتوبلازما، وهي مادة حية تجري فيها جميع نشاطات الحياة، و التي تتجلى فيها أعاجيب الربوبية.

ولكن الأمر الذي يبهت الدنيا العلمية هو أنه كيف وجد هذا البروتوبلازما من العناصر الميتة. وقد عجز العلماء القائلين بأن الحياة قد ظهرت إلى حيز الوجود تلقائيا عن حل هذه الألغوزة، ولا يستطيعوه أبداً. الأمر الذي جعل بعضا منهم يظن أن الحياة ربما كان وجودها في كوكب آخر غير الكرة الأرضية، ثم كان انتقالها إلى هذه الكرة عبر بعض الشهب. ولكن هذا الظن ليس إلا رميا في ظلام، وقد يدع الأمر أكثر تعقيدا بأنه كيف كان وجود الحياة في تلك الكواكب؟ فهذا سر غامض من الوجهة العلمية يترك العقل البشري قاصرا كليلا عن الوصول إلى حقيقة الأمر. ومن هنالك لا يبقى للإنسان مفر من أن يعتقد بوجود خالق ينفّذ أوامره في هذا الكون المادي، إذ أنه هو الرب العظيم. وقد قام القرآن الكريم بإعلان هذه الحقيقة العظمى في أسلوب يهز العقل البشري ويحل جميع الألغاز:

﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي، ذلكم الله فأنى تؤفكون.﴾ الأنعام: ٩٥

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكلية في مقامات شتى وبأساليب مختلفة.

معميات الحياة

ولئن كان من معجزات ربوبية الله تعالى أنه خلق الحياة بتركيب بعض العناصر الميتة والذرات الهامدة من أمثال الأوكسيجن والكربون والهيدروجين والكلسيوم والفوسفور والكلورين والسلفر والبوتاسيوم والصوديوم وغيرها من العناصر المتواجدة في البروتوبلازما، فإن خلاق

الكون يأتي بمعجزة أعظم وهو أنه يبهت العقل البشري بإعادة هذه العملية مرة بعد مرات. كما أنه يُخرِج الأشياء الميتة من الأشياء الحية - أي الحيوانات والنباتات - مثل النوى والحب والبيضة، ثم يلقي الحياة في تلك الأشياء الميتة، فيُخرِج من بيضات الطيور وحبوب الأشجار طيورا وأنبتة مثل الذي كان منه خروج تلك البيضات والحبوب إظهارا لقدرته الكاملة. وكما أن الحيوانات المرضعة تلد من بطونها أولادا من نوعها. وبهذه الطريقة يخرج الله تعالى أشياء حية من الأشياء الحية الأخرى، وهو أكثر إثارة للدهشة من ذي قبل. وحقيقة الأمر يتضح بمطالعة علم الوراثة.

تقول الوجهة الطبيعة إن خليات الحيوانات والنباتات تحتوي على ما يسمى بالجينيات (المورّثات) والكروموسومات (الصبغيات) التي تحتفظ بالصفات الوراثية والنوعية، وهي التي تسبب في نقل خصائص الجيل السابق إلى الجيل اللاحق. ولكن هذه المقولة لا خلاق لها من تعليل العمليات التلقائية للأجسام. كيف أن أعضاء الجسم أو أغصان الأشجار وأوراقها وثمارها وأزهارها تخرج بنفسها بالصفات النوعية المقدرة لمثيلاتها؟ وكيف لا يقع هناك أي تغاير في تركيب أوراقها وأزهارها وأثمارها، وفي ألوانها وخواصها، لا ولا في أجزائها وعناصرها وطعومها؟ حتى كأن هناك في داخلها من ينفذ أوامره عليها. فهو يأمر الأغصان أن تسمق إلى ارتفاع معلوم، وتمتد في أبعاد معلومة. ويأمر الأوراق أن تخرج بشكل مقدر وأن تقوم بوظائف مخصصة. ويأمر الأنسجة أن تتقدم بنشاطاتها إلى جهة خاصة، وأن تعمل على تكوين أعضاء معينة. ويأمر الأزهار والأثمار أن تأخذ قدرا قياسيا من العناصر، وأن تخرج بالألوان

والطعوم التي جعلت لها. فتنمو جميع الأنبتة والأشجار وتنشأ على الطريقة المطابقة تماما على خصائص "آبائها".

وجميع هذه المظاهر المُعْجِبة لا تقلّ في روعتها عن عالم الطلاسم. فقد كتب بعض العلماء الطبيعيين معبّرا عن حيرته:

" إن القول بأن بنيان الجسم يُدَبَّر بعمل الجينات، ثم تفسيره من الناحية العلمية لأعسر بكثير من أن نقول بأنه يدبر من الله تعالى".

To say that the body form is controlled by the genes is hardly illuminating scientifically than to say that it is controlled by God.[1]

والحق أن عالم الجينات والكروموسومات من أغمض العوالم المادية، ولم يطلع العلماء على حقيقتهما حتى الآن. فإن المادة التي تتكون بها الجينات تسمى DNA، ولها أنواع أربعة. ولكن كيفية اجتماع هذه المواد مازالت مجهولة. كما قال عالم طبيعي معروف:

It was still not known, however, exactly how these four kinds of building units are joined to form DNA.[2]

ويقول باحث آخر:

"لا يمكن توالد الكائن الحي بدون مادة DNA، وإن الحياة - كما نعرف - لن تبدأ بدون هذه المادة. إن جواهر المادة الحيوية

---

(١) *The Encyclopaedia of Ignorance*, Oxford, 1978, P.252.

(٢) Rothwell, *Human Genetics*, 1978, P.209.

بأسرها - أي الإنزيمات والأجزاء الأخرى التي يحفز إنتاجها عن طريق الإنزيمات تعتمد في تحليلها النهائي على DNA . فالسؤال الطبيعي هو أنه كيف وجدت مادة DNA ، وكيف كان بدء الحياة؟ هذا سؤال تردد العلم دائما في إثارته ، لأن أصل الحياة اتصاله بالمعتقدات الدينية أوثق بكثير من اتصال أصل الأرض ومبدأ الكون بتلك المعتقدات . وإن هذه القضية تعامل إلى الآن كذلك معاملة تردد واعتذار" :

Without DNA, living organisms could not reproduce, and life as we know it could not have started. All the substances of living matter - enzymes and all the others, whose production is catalysed by enzymes - depend in the last analysis on DNA. How, then did DNA, and life started? This is a question that science has always hesitated to ask, because the origin of life has been bound up with religious beliefs even more strongly than has the origin of the earth and the universe. It is still dealt with only hesitantly and apologetically.[3]

وعلى كل ، فإن جميع هذه النشاطات المتعلقة بالجينات والكروموسومات ومادة الحياة تتحصل في داخل الخليات . وكل خلية تشكّل معملا في حد ذاتها وهي لا تُرى إلا بواسطة المجهر . ولكن الإنسان يبدو عاجزا عن الوصول إلى حقيقة هذا الشيء الصغير ومعرفة أسراره .

من يعيد الخلق؟

كيف كان بدء الحياة؟ كان ذلك بطريقة سرية مازالت مجهولة مع أن

---

(٣) *Asimov's Guide to Science*, 1978, V.2, P.172-173.

هذا العمل يتحصل بشكل مستمر في نظام الطبيعة. يعني أن هذا العمل يتكرر كل يوم صباحا مساءً في دنيا الحيوانات والنباتات. فكل نوع منهما ينبت الأفراد من ذلك النوع. ولكن هذا الخلق المجدد للأنواع الحيوانية والنباتية لا تزال محفوفا بأنواع من الحيرة والاستعجاب مثلما يلاقيه الإنسان في تفكيك عقد الخلق الأول. ولقد وقفت الدنيا العلمية هنالك حائرة بائرة لا تدري كيف يتم هذا "العمل الآلي"؟ فكما يشاهده الجميع أن النبتة التي تخرج من حبة صغيرة إنما تخرج على حسب صورتها النوعية. وتكون أغصانها وفروعها وأنوارها وأوراقها وأزهارها وأثمارها مطابقة تماما مع خصائصها الأسرية. كأنها خرجت من عند صانع حاذق عمل على تعديلها وتسويتها، فلا يوجد أي تفاوت في أجزائها وعناصرها وخواصها الطبيعية. فكيف يجوز توجيه هذه المظاهر إلى مقولة "الحياة التلقائية".

وعندها يضطر الإنسان لا محالة إلى الاعتراف بخالق ومربٍّ يقوم بخلق هذه الأنواع الأحيائية الكثيرة بادئ ذي بدء. وهو الذي يخلق جميع تلك الأنواع عودا على بدء بخصائصها النوعية، مما يقف شاهدا حيا على ربوبيته وخلاقيته، ويترك الدنيا العلمية بأسرها في ورطة الدهشة والانبهار عاجزة عن إدراك حقيقة هذا العمل الإلهي وكيفيته. ومن أجل ذلك فقد عدّ القرآن الكريم عملية "إعادة الحياة" و "إعادة الأنواع" من أفعال القدرة الإلهية الخاصة، مما يقيم تحديا صارخا في وجه الدنيا العلمية:

﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير.﴾

العنكبوت: ١٩

وقال تعالى: ﴿أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض، ء إله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.﴾ النمل: ٦٤

توحيد الألوهية وإبطال الشرك

وقد جاء في آية أخرى من القرآن الكريم حيث يقول الله تبارك وتعالى موضحا هذه الكلية أن إبداع أنواع الحياة ثم إعادتها مرة بعد أخرى لَبيِّنة بكْر على وحدانية الله تعالى، ومعجزة من معجزات الربوبية لا يقدر عليها إلا الله تعالى، ولا شريك له أحد غيره:

﴿قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده، قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون.﴾ يونس: ٣٤

وليعلم هنا أن معنى كلمة البدأ والإبداء فعل الشئي لأول مرة. والمبدئ في أسماء الله تعالى. هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداءً من غير مثال سابق.[٤] ولذلك قال الله عز وجل

﴿وهو الذي يبدو الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم.﴾ الروم: ٢٧

هذا القول كما كان يصدق على المشركين القدامى فهو صادق كذلك بالنسبة إلى العلماء الطبيعيين المعاصرين. فإن الدنيا العلمية لا تستطيع أبدا أن تنبت شجرة واحدة ولا أن تعيد هذا العمل. لأن الخلق يستلزم أن يسبقه

---

[٤] أنظر لسان العرب، لابن منظور: ١/ ٢٦، دار صادر، بيروت.

المعرفة بالأجهزة الداخلية لأنواع الحياة. أما الدنيا العلمية فهو لا يعرف من الحياة حتى ألفبائها. فظهر من هنالك أن لهذا الكون خالقا واحدا وربا واحدا لا شريك له. وهذه الأنواع الأحيائية الكثيرة هي نماذج ربوبيته وقدرته، كما أنها تمثل تحديا واضحا للنوع البشري من الوجهة العلمية.

وملخص القول أن مظاهر الربوبية مبعثرة في أرجاء الدنيا النباتية. وكل شجرة ونبتة من بين مئات الألوف من النباتات تمثل معجزة كاملة لربوبية الله تعالى، كما أنها تعطي للنوع البشري دروس العبرة في التزامها الشديد بالضوابط الطبيعية المحيرة. وكل ورقة من أوراق الأشجار تكون بذاتها معملا كاملا من الوجهة العلمية حيث تُصنع فيها الكربوهيدرات التي تكون بدورها جزءا أساسيا من غذاء الإنسان. أما الطريقة المحيرة التي تنشأ بها الكربوهيدرات فهو موضوع طويل يقتضي بحثا مستقلا مخصصا له. كما أن هناك حقائق أخرى كثيرة نتعرض لها - إن شاء الله تعالى - فيما بعد، إذ لا يسعها هذا البحث الموجز.

نداء الإسلام

وخلاصة البحث أن في هذا الكون ذاتا مبدعة صاحبة الأفعال المعجزة التي توفّر أرزاق المخلوقات بطريقة بديعة. ومن أجل ذلك ينادي الإسلام سائر النوع البشري إلى أن يتوجهوا إلى الله تعالى يعبدونه ويسجدون له. وهذا النداء ليس من علامات الرجعية ولا من بقايا عهود الجاهلية، ولكنه ضرورة ثابتة في العصر الحديث. ولذلك جاء في القرآن الكريم مخاطبا للنوع البشري أن تشكروا الله تعالى على ما تأكلون من رزقه الذي أنزله لكم

ولا تكفروه فتلحقوا به شركاء وأندادا :

﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون.﴾ البقرة: ٢٢

وهذا ينطبق تماما على الملحدين والماديين المعاصرين الذين يصدفون عن الحقائق ويتعسفون في تيماء المادية وينسبون صفات الله تعالى وأفعاله إلى المادة فيجعلونها إلها مثل أولئك المشركين القدامى الذين كانوا يزعمون لله تعالى شركاء. وهكذا فإن إنكار الله تعالى والإشراك به سواء. لأن الإنكار بألوهية الله تعالى وإسناد صفاته إلى المادة إنما هو تأليه للمادة. فيجب على الإنسان - إذن - أن يفيء إلى طريق الحقّانية وأن يبصر خالقه ورازقه الحقيقي ويكون شاكرا له ومؤمنا به.

الاستنساخ الجيني

والجدير بالذكر أن هذه المقالة (المحاضرة) كتبت قبل ثلاثة أعوام، ولم يتكشف الاستنساخ الجيني إلى ذلك الحين، الذي ظهر مؤخرًا وأدهش الناس. كما أنه أحدث أسئلة منها أنه هل أصبح الإنسان خالقا بتنفيذ هذه التجربة؟ فالجواب عنه من الوجهان. وبذلك يظهر الفرق بين الخلق الإلهي والعمل الإنساني. أما الأول فهو أن العمل الإلهي هو المبتكر الأصلي، والعمل الإنساني هو النسخ والمحاكاة فقط. فما فَعل العلماء الطبيعيون من الاستنساخ الجيني (وهو توليد مزدوج حيواني توليدا صناعيا من الخلية بدون العمل الجنسي) من إنتاج نعجة في المعمل من خلية واحدة من الخلايا الكثيرة المتواجدة في "الأم". ولكن لا يسمي هذا العمل خلقا، وإن كان من

الأعاجيب العلمية. لأن الإنسان لم يبتكره، بل اختار خلية من الخلايا التي خلقها الله تعالى لهذه التجربة. فلم يخلق شيئا جديدا، ولم ينجزه من العناصر الميتة أو التراب. فلا يكون الإنسان خالقا مبتكرا أبدا.

وأما الوجه الثاني فإن العلماء مع نجاحهم في هذه التجربة لم يطلعوا على أسرار الخلية وماكينتها الباطنة وفعاليتها الحقيقية. كما أنهم جاهلون عن أبجدية "الحياة". وهذه حقيقة علمية لا مراء فيها في دنيا العلم. فإن العلم الإنساني إنما يتعلق بظواهر الأشياء فقط، ولا سلطان له في بواطنها وأسرارها المكنية. فلا يكون خالقا كما لا يكون عالما. فإنه في ملكوت ذات جبارة، تحيره من كل جانب وتدهشه قائما وقاعدا.

لقد كتبنا مقالة خاصة على موضوع الاستنساخ بعنوان "الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي" فيها بحث من وجوه متعددة. وهي شاملة في هذا الكتاب أخيرا.

المحاضرة الخامسة

عالم النبات يشهد على وجود الخالق

المشاهدات الربانية في دنيا النبات

قال الشيخ سعدي الشاعر الفارسي ، ما معناه :

وفي كل ورقة من أوراق الأشجار آية من آيات الله ، وهي مملوءة بالبصائر والعبر لمعرفة البارئ تعالى .

ما أروع هذا البيت الصغير وقد حشيت فيه مكتبات من حقائق الدنيا النباتية ، وهو خير ممثل للنظرة الإيمانية تجاه المظاهر النباتية . ولله دَرّ الإمام الغزالي ، ما كان أدق نظرا حيث ذكر قبل تطور العلوم الحديثة بقرون أن لا فرق بين الحيوانات والنباتات ، إلا أن الحيوانات قادرة على المشي والتنقل ، والنباتات لا تقدر عليه ، فهي متسمّرة في مواضعها من الأرض . وأدهش من هذا أنها متسمّرة على وجوهها ، فتمتصّ الماء من الأرض كما تمتص الحيوانات من أثد أمهاتها . على ما يقول :

"تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات ، فإنها لما كانت

محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات - ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها - جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتجذب الماء من الأرض، فتغتذي بها أصولها وما علا منها من الأغصان والأوراق والثمار. فصارت الأرض كالأم المربية لها، وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها، وكأنها ترضع لتبلع منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان من أمهاتها". [1]

العلوم العصرية تؤيد

فقد أكدت العلوم العصرية أن الماء والأملاح المعدنية من الكلسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم، والفوسفور، والحديد وغيرها المختلطة بالماء تصل إلى أوراق الأشجار بواسطة الأصول والأغصان. وهذه الأوراق تأخذ تلك المياه والأملاح لتكوّن منها الكربوهيدرات Carbohydrates، التي يتألف منها الجزء الأكبر من الغلات والفواكه. وقد أظهرت الكشوف الحديثة أن النباتات أيضا تمارس عملية التنفس مثل الحيوانات، وتحس وتدرك مثلها، وتأكل وتشرب مثلها، وتتناكح وتولد مثلها. وهي تنتج الحبوب والفواكه، ثم تنمو هذه الحبوب وتنشأ لتنبت حبوبا أخرى مثلها، وهكذا دواليك.

ولكن انظروا إلى تعاسة الإنسان وشقائه، إنه يأكل من هذه الأشجار

---

(١) الحكمة في مخلوقات الله، الإمام الغزالي، ص١٠٣.

والنبات، ويقتات بها أنواعا من البقول والثمار، ولكنه لا يلتفت لثانيةٍ ما إلى تلك الأشياء التفاتَ متأنّ ومتدبر في أعمالها المدهشة، وفي القوى الأرضية والسماوية التي تتحالف فيما بينها في إخراجها وإنباتها. ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدوا في غوامضها وخباياها صقلا للأنظار وعظة للأسماع والأبصار. فإن الحيوانات بأسرها مرهونة للنباتات في الإبقاء على حياتها وبقاءها على وجه الأرض، إذ أن الحيوانات والنباتات تتعامل معا في المحافظة على معدل الأوكسيجن في الجو والنتروجين في الأرض. وأي فساد وقع في هذا التناسب يكون مؤديا إلى إفساد نظام العالم ودهورة الحياة الإنسانية والحيوانية.

الله وكيل كل شيء

إن الله تعالى هو وحده خالق هذا الكون ومدبره. وهو الذي خلق هذا الكون البديع بتقديره وتخطيطه حيث لا ترى فيه أي فساد أو خلل. وقد أحاطت ربوبيته بجميع الكينونات، فهو رب للجمادات والسماوات والنبات والحيوانات. وهو الذي خلق جميع مظاهر الكون فقدر مبادئها الطبيعية، ثم كان عليها وكيلا. فقد قال تعالى:

﴿وخلق كل شيء فقدره تقديرا.﴾ الفرقان: ٢

وقال تعالى: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾

الزمر: ٦٢

ولو وكَل الله تعالى هذا الكون إلى نفسه وغاب عنه طرفة عين لَتدمر

الكون وتمزق النظام. ولذلك لا تنام عينه عن مخلوقاته ولو لردة بصر، رحمة بهم وشفقة عليهم.

﴿الله لا إله إلا هو، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض.﴾ البقرة: ٢٥٥

الربوبية الشاملة

والله تبارك وتعالى آخذ بناصية جميع ما في الكون بربوبيته الشاملة. وقد وسعت ربوبيته كل شيء، فلا ينخلع عن ربقته ذرة من ذرات الكون. بل إن كل مظهر من مظاهر الطبيعة موثق بسلاسل القوانين الطبيعية، يعمل حسب إرادته ومشيئته، ولا يستطيع أن يمرق من أوامره شيئا:

﴿بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون.﴾ البقرة: ١١٦

كل يطيعونه ويسلمون له طبيعيا، فتقرر من هذا كونه ربا للكون وسائر مظاهره. والآية الأولى من القرآن الكريم في ترتيب المصحف الكريم تكشف هذه الحقيقة فتقول:

﴿الحمد لله رب العالمين.﴾ الفاتحة: ١

وكلمة "الرب" حاملة لمفهوم واسع. فهي شاملة للخلق والتدريب والرعاية والتدبير. إذ أنها - كما قال الراغب الأصفهاني - "الرب" في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام.[٢] وكذلك

---

[٢] انظر: المفردات في غريب القرآن.

الأمر والحكم على الخلائق شامل في وسعة الربوبية، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة:

﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.﴾ الأعراف: ٥٤

خالق الكون ومدبره

فظهر من هذا أن الله تعالى هو خالق هذا الكون وربه، وهو المشرّع والوكيل في عالم النبات أيضا. وهو الذي يَفْرِي الفَرِيَّ في هذا العالم الطبيعي تنبيها على عظمته وجلالة شأنه. وهذا العالم الطبيعي بجميع ما فيه من النظم والماكينات، يقذف العقل الإنساني في ورطة الدهشة حتى يعترف بقوة قاهرة وراء تلك المظاهر. فإن هذا الكون المشاهد لمعمور أكنافه بالمشاهد الغنية بإبداعاته وتطريزاته، والتي هي لا جرم من "معجزات الربوبية". ففي هذا البحث نعرض لكم شيئا من الحقائق النباتية التي اكتشفتها العلوم العصرية ولكنها عجزت عن أن تقدم لها تفسيرا ملائما من الوجهة المادية. ولا يُفَكّ هذه العُقَد أبدًا إلا أن نسلم بوجود خالق ومدبر وراء هذه الظواهر المحيرة.

الوظائف المحيرة للأوراق

تعالوا ندرس أولا وظائف الأوراق، فإنها وظيفة أساسية ومشتركة في الدنيا النباتية. فقد أثبتت الدراسات الحديثة بعد إجراء التجارب الدقيقة بواسطة المجهر أن هذه الأوراق توجد فيها حبيبات صغيرة – وهي حبيبة اليخضور Chloroplast – تحتوي على مادة خضراء تسمى "الكلوروفيل"

Chlorophyll . وهذه المادة هي التي تضفي عليها اللون الأخضر. ثم تكون في الأوراق آلاف وآلاف من الفتحات الصغيرة التي يدخل من خلالها ثاني أكسيد الكربون Carbon Dioxide (CO_2) المتواجد في الهواء ويخرج منها الأوكسيجن Oxygen (O_2). فهل يا ترى ما هي هذه الوظيفة؟ فإن هذه المواد الخضراء تأتي بعملية عجيبة، حيث إنها تمزج ثاني أكسيد الكربون (CO_2) في الماء الذي تأخذه من الأصول والأغصان بالتفاعل مع الأشعة الشمسية لتكوّن منها مادة حلوة غضّة تسمى "الكربوهيدرات". ومما يعلم أن ثاني أكسيد الكربون (CO_2) غازة رديئة غثّة، قد تسبب الهلكة للإنسان والحيوان. فسبحان الذي يكوّن من تلك المادة الغثة شيئا حلوا سائغا! وقد كَلّ العلماء دون الوصول إلى كنه هذه العملية. فقد اعترف عالم من علماء الطبيعة بهذا العجز وقال:

"*و من سوء الحظ، إننا لا ندرك آلية هذه العملية.*"

Unfortunately, we do not understand the mechanism of this process.[3]

والحاصل أن كل ورقة من أوراق الأشجار إنما هي معمل في حد ذاتها، وهذه الأوراق تتعاطى وظيفة مشتركة فيما بينها لتنتج أزهارا وأثمارا. وكما أسلفنا أن الكربوهيدرات تؤلف الجزء الأكبر من حبوبنا وبقولنا وثمارنا وفواكهنا. وتتم هذه العملية في آلاف من أنواع النبات على وجه

---

(٣) William D. McElory, *Cell Physiology and Biochemistry*, Prentice Hall of India, New Delhi, (3rd Edition), 1978, P.111.

سواء مما يجعل مدارك الإنسان تتورط في ورطة الانبهار:

﴿ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل.﴾ الأنعام: ١٠٢

عملية تبادل وتناسب الأوكسيجن

وهناك وظيفة أخرى للأوراق أكثر إثارة للدهشة من ذي قبل. وهي أن النباتات المخضرة تستنشق ثاني أكسيد الكربون من الجو وتكوّن منها الكربوهيدرات في جانب، ثم تفرز الأوكسيجن إلى الجو، ولو كانت النباتات لا تفرز الأوكسيجن، لأدّى ذلك إلى نفاد الأوكسيجن المتواجدة في الجو، ولهلك الإنسان والحيوانات بأجمعهم. إذ أنهم بالعكس يستنشقون الأوكسيجن ويفرزون ثاني أكسيد الكربون. وبفضل هذا العمل الثنائي يبقى الجو محتفظا بنسبة الأوكسيجن. فانظر إلى رحمة الله تعالى، كيف جعل ما هو ضار بنا صالحا للنبات، وما هو ضار بالنبات صالحا لنا. فهل من ميزان أعدل من هذا الميزان الإلهي؟

﴿والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان.﴾

الرحمن: ٧-٨

فقد جاءت إحصائيات عالم طبيعي تذكر أن النباتات الخضراء تستهلك بممارسة تلك الوظيفة مائة وخمسين ألف مليون طن من الكربون من ثاني أكسيد الكربون، وتطلق زهاء أربعمائة مليون طن من الأوكسيجن

في سنة واحدة.[٤] ولذلك قال تعالى:

﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء.﴾ النمل: ٨٨

حجة باهرة على وجود البارئ تعالى

وهناك وظيفة أخرى أشد غرابة وأعظم تذكرة، تزعزع كيان المادية من أساسها، وتضطرّ الإنسان إلى الاعتراف بخالق ومدبر. فكما أنتم تعلمون أن ثاني أكسيد الكربون (CO_2) جزيئة (Molecule) تتألف من جوهر من الكربون وجوهرين من الأوكسيجن (O_2). ثم إن النباتات حينما تستنشق ثاني أكسيد الكربون من الجو فإن حُبيبات اليخضور المتواجدة في الأوراق تأخذ الكربونَ قوتا لها، وترد الأوكسيجن (O_2) إلى الجو. وهذه الوظيفة تجري على سواء بين مئات الألوف من أنواع النبات المختلفة، ولا يقع فيها أي تفاوت. وناهيك بهذه العملية دهشة وإعجابا من الوجهة الطبيعية والتي تتحصل في جميع أنواع النباتات على وجه سواء. فإن الأنواع المختلفة من النباتات لا تفتؤ تُقبل صباحَ مساءَ على إعداد الكربوهيدرات دون فتور. ومن الطريف أن المعادلة الكيميائية للكربوهيدرات متماثلة في جميع أنواع النبات رغم خصائصها النوعية المتباينة. فإن جزيئة الكربوهيدرات تتألف دائما من ٦ جواهر من الكربون و ١٢ من الهيدروجين و ٦ من الأوكسيجن، ولا يحدث أي تخلف في هذه المعادلة (Formula). فكأن هناك مهندسا فنانا يوزع عليها هذه الجواهر ويحصيها

---

(٤) Issac Asimov, *Asimov's Guide to Science*, Penguin Books, England, Vol.2, P.116.

عددا. وكأن هذه النباتات بجميع أنواعها من عمّال معمل واحد. وبالجملة فإنه إذا طرأ أي خلل على عدد هذه الجواهر أو ترتيبها فإن الأشياء تتغير في أصلها وربما يصبح الغذاء الصالح مسمومًا. كما نشاهد ذلك في شأن ثاني أكسيد الكربون (CO_2) وأول أكسيد الكربون Carbon Monoxide (CO)، فإن الأولى تتألف من جوهر من الكربون وجوهرين من الأوكسيجن، والأخرى تتألف من واحد من الكربون وواحد من الأوكسيجن باختلاف جوهر واحد بينهما فحسب. ولكن هل تعلم أن أول أكسيد الكربون (CO) غازة سامة جدا بالعكس من ثاني أكسيد الكربون؟ فإذا كانت النباتات تطلق أول أكسيد الكربون (CO)، بدلا من الأوكسيجن (O_2)، تصور ماذا كانت النتيجة؟ وهل بقي هناك أي متنفس على وجه الأرض؟ فهذا يدل على أن النباتات تقضي مهمتها هذه بكل إدراك وشعور. ولكن من أين حصل لها هذا الشعور الذي يأمرها أن لا تفرط في تكرير هذه العملية؟ وهل يُعقَل من المادة العمياء الصماء أن تأتي بمثل هذا التعقل من عند نفسها؟ والجواب البسيط لكل هذه الأسئلة أن الله تعالى هو الذي أوحى إليها ذلك، وجميع هذه الأعاجيب هي في الحقيقة من أعاجيب الربوبية:

﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان.﴾ الرحمن

ولا عجب إذا أن هذه هي الهداية الربانية الشاملة لجميع الكينونات التي تعمل بإرشادات ربها وتستهدي منها كل حين. ولذلك قال الله تبارك وتعالى:

﴿سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوى. والذي قدر فهدى.﴾
الأعلى: ١-٣

وتفسير هذه الآيات قد مر في المحاضرة السابقة.

الآيات الإلهية في وظائف الجذور

إذا قمت بالتحليل الكيميائي للفواكه والثمار وجدت فيها ألوانا من الأملاح المعدنية، من الكلسيوم، والبوتاسيوم، والفوسفور، والحديد وغيرها مما يكون مختلطا بالماء في بطون الأرض. وحينما تمتص الأصول هذا الماء من الأرض امتصت هذه الأملاح المعدنية كذلك لتكون غذاء لها. وهذه الأملاح المعدنية تلعب دورا هاما في صيانة صحة الإنسان. ولكن نسبتها تختلف من فاكهة لأخرى.

فهناك عنصر الفوسفور - مثلا - يدخل في كل مائة غرام من:

اللوز	٥٠٤ مليغرام	التفاح	١٠ مليغرام	الجزرة	٣٦ مليغرام
البلاذر	٣٧٣ مليغرام	القهوة	٣٨٣ مليغرام	القثاء	٢٧ مليغرام
العنب	١٢ مليغرام	الزيتون	١٧ مليغرام	البسلي	٢٦٨ مليغرام

وكذلك الصوديوم فإنه يدخل في كل مائة غرام من:

اللوز	٤ مليغرام	التفاح	١ مليغرام	الجزرة	٤٧ مليغرام
البلاذر	١٥ مليغرام	القهوة	٧٢ مليغرام	القثاء	٦ مليغرام
العنب	٣ مليغرام	الزيتون	٨١٣ مليغرام	البسلي	٤٠ مليغرام

ومن العجب العجاب أن أنواع النبات لا تقتنص هذه العناصر من

الأرض إلا بمقدار ما تحتاج إليه ولا تخطئ فيه أبدا، مع أنها تسقى بماء واحد وتزرع في أرض واحد، والأملاح المعدنية جميعها تكون مختلطة بالماء. فيا ليت شعري كيف تهتدي هذه الأنواع المختلفة إلى حساب مقدار معلوم من العناصر المعلومة وفق خصائصها الوراثية؟ وهل تستطيع الدنيا العلمية أن تقدم تعليلا معقولا لهذه الظواهر النباتية؟ وهل تستطيع هي أن تقاوم هذا التحدي الذي يطرح نفسه عليها؟ كلا! إنها لا تستطيع أن تفك هذه العقدة أو تعترفَ بوجود قوة قاهرة:

﴿ذلكم الله ربكم له الملك، لا إله إلا هو، فأنى تصرفون.﴾
الزمر: ٦

والحقيقة أن الدنيا العلمية لا تمتلك إلا بيانا ظاهرا عن هذه الحقائق الدقيقة، وقد عجزت عن الإطلاع على بواطنها. فقد صرح مؤرخ العلوم الطبيعية "دامبير" W. C. Dampier معترفا بهذه الحقيقة:

Science gives only a conceptual model of phenomena and enables us only to trace a routine sensations.(5)

اختلاف الألوان من دلائل الربوبية

يوجد في عالم النبات بأكثر من أربعمائة ألف نوع من النباتات، منها ما هو يوفّر قوتا للإنسان، وما هو يوفر خضرا، وما هو يوفر دهنا، وما هو يوفر التوابل والأبزار. ومنها ما يستلذّه اللسان من الفواكه والثمار، ومنها

---

(٥) W.C. Dampier, *A History of Science*, S. Chand & Company Ltd, New Delhi, 1982, (4th Edition), P.472.

ما يستعمله الإنسان دواء، وما يستعمله البهائم قوتًا لها. ومنها ما يستعمله الإنسان لتوفير الضرورات المدنية والعمرانية. وهكذا فإن هناك أنواعا من النباتات ينتفع بها الإنسان والبهائم في مختلف حاجاتهم وضروراتهم. فيا عجبا من أين جاء هذا الاختلاف في الألوان والأشكال، وفي الصورة والأجسام، وفي الخواص والتأثيرات، فالماء واحد والأرض واحدة والشمس واحدة. فلو لا الربوبية والخلاقية كامنة وراء هذا لما تيسر هذا الاختلاف. ولذلك فقد قرر اختلاف الألوان والخواص والتأثيرات من دلائل الربوبية. فقد قال تعالى:

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها.﴾ فاطر: ٢٧

وكما دلت الآيات الكريمة من سورة الرعد والنحل أن في هذا الاختلاف في الألوان والخواص، وفي هذا التفضيل في المذاق والطعم لآيات لقوم يعقلون ويذكرون:

﴿وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون.﴾ النحل: ١٣

وقال تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.﴾ الرعد: ٤

ومن دلائل الربوبية اختلاف الخواص

فإذا قام الإنسان بدراسة هذه الفواكه والثمار والغلات والخضراوات والتوابل والأبزار والحشائش من الناحية الطبية وجدها مختلفة الخواص والكيفيات، والشكل والصورة، والألوان والرائحة، والطعم والتأثيرات، مع أنها تسقى بماء واحد وتزرع في أرض واحدة وهواء واحدة فلا يفك هذه العقدة إلا أن نسلم بوجود مدبر وراء هذا الاختلاف. وصادف فيها عجائب خلق الله تعالى وبدائع صنعه. ثم إن هذه النباتات المختلفة مازالت محتفظة بخصائصها الطبيعية والنوعية عبر آلاف السنين دون أي تفاوت أو فتور. فإنك إذا غرست أنواعا من النباتات في قطعة واحدة من الأرض وجدتها لا تنبت إلا على خصائصها الطبيعية وصورتها المألوفة، ولا تتأثر بغير نوعها. وعلى سبيل المثال لا يتأثر الأنبج من خواص الجوافة شيئا، ولا الجوافة من الرمان، ولا الرمان من التفاح. وقس على ذلك.

وهذه الفواكه والثمار تكون مختلفة الكيفيات، فمنها ما هو حار رطب، مثل التين واللوز والفستق والتمر والبلاذر، وما هو حار يابس، مثل الجوز والعنب. وبالعكس من ذلك منها ما هو بارد رطب، مثل الجوافة والرمان والأناناس والبرتقال والبطيخ الأحمر والقثاء والليمون، وما هو بارد يابس مثل الأنبج.

فهل يمكنك أن تظفر بتفسير مقنع لهذه الظواهر والعمليات بدون الاقتناع بقوة قاهرة جبارة:

﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل.﴾ الزمر: ٦٢

وهذه الغلات والفواكه والثمار تختلف كذلك من حيث المنافع، فهذا يبرئ من مرض وذاك يشفي آخر. وهذه النباتات هي التي تستخلص منها الأدوية الصالحة لجميع أعراض الإنسان وعلله في الطب القديم والحديث. فإن حقنة البنسلين مثلا تصنع من الطحلب - الشيء التافه الذي ينبت في البرك والبحار. وقد وضع الله تعالى فوائد كثيرة في أمثال هذه الأشياء التافهة، ولم يخلق أي شيء عبثا.

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا.﴾ آل عمران: ١٩

جوهرة نادرة من محيط القرآن الكريم

يكمن الإعجاز الحقيقي للقرآن الكريم في أنه يأتي بألفاظ قليلة ويودع فيها أصولا جامعة تكون بمثابة العناوين للعلوم والفنون. ولا يتمكن الإنسان من شرحها وتفسيرها إلا أن يغوص في أعماق تلك العلوم والفنون ويوفر منها حظه. والآية التاسعة عشرة من سورة الحجر واحدة من تلك الكليات الجامعة الوفيرة التي لا تتحمل شرحها مكتبات ضخمة من علم النبات؛ وهي:

﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون.﴾ الحجر: ١٩

وهذه الآية كأنها امتشقت فيها روح السير النباتية، وكأن هذه الكلية هي بمثابة المفتاح الرئيسي للدنيا النباتية من الناحية الطبيعية والكيميائية، نستطيع في ضوءها أن نزن تلك المظاهر من تلك الناحية. وهذه الكلية تصدق على الدنيا النباتية من جميع جوانبها.

والإعجاز الحقيقي في هذه الآية الكريمة يكمن في "شيء موزون"، فإن هذا التركيب جامع للمعاني والحقائق. ولهذه الآية مفهومان: واسع، ومحدود. وأتناول كليهما في هذا المقام بالبيان الموجز. لأننا إذا ذهبنا في تفصيلها لأتينا على مجلدات ضخمة، وأخشى أن لا أستوفيها نصيبها من الحقائق والمعارف، فإنها ترسم رسوما وافية لدنيا النبات "صورة وسيرة" من وجهة علم التشكل أو المورفولوجيا (Morphology) وعلم وظائف الأعضاء أو الفزيالوجيا (Physiology). وهذان العلمان من أهم العلوم البيولوجيا. فالأول يتمثل لصور النباتات، بينما الآخر ممثل لسيرها.

أما المفهوم المحدود فهو أن يراد بها الغلات والفواكه، فإنها تحتوي من العناصر الأساسية من البروتينات، والكربوهيدرات، والشحم، والأملاح المعدنية، والفيتامينات ما يكون بمقادير محدودة ونسب محفوظة مختلفة في الأنواع النباتية المختلفة. وهذه المقادير والنسب هي التي تحدد أشكالها وخصائصها التي لا تتغير أبدا كأن هذه المواد تُمزج وتُلقى فيها بكيل معلوم ووزن معلوم. ها أنا أقدم لكم جدولا لبعض النباتات المأكولة والتي تدل على إتقان صنع الله تعالى:

المواد الغذائية	البروتينات	الكربوهيدرات	الشحميات
القمح	١١،٨٪	١٧،٢٪	٠١،٥٪
الأرز	٠٧،٥٪	٧٨،٧٪	٠،٠١٪
البسلي	١٩،٧٪	٥٦،٦٪	٠،٠٧٪
الجزرة	٠٠،٩٪	١٠،٧٪	٠،٢٪
التمر	٣،٠٠٪	٦٧،٣٪	٠٠،٢٪

العنب	٨، ٠٠٪	٢، ١٠٪	١، ٠٠٪
حمص	٩، ٢٤٪	١، ٦٠٪	٢، ٣٪

ومن الأملاح المعدنية عنصر الكلسيوم مثلا ، فإنه داخل في كل مائة غرام من :

اللوز	٢٣٤ مليغرام	المشمش	٣١ مليغرام	البلاذر	٣٨ مليغرام
التمر	٥٩ مليغرام	الزيتون	٨٤ مليغرام	الرمان	٠٣ مليغرام
الأنبج	١٠ مليغرام	الليمون	٣٣ مليغرام	تفاح	٠٧ مليغرام

وكذلك عنصر البوتاسيوم، وهو داخل في كل مائة غرام من :

اللوز	٧٧٣ مليغرام	التفاح	١١٠ مليغرام	الموز	٣٧٠ مليغرام
البلاذر	٤٦٤ مليغرام	التمر	٦٤٨ مليغرام	العنب	١٥٨ مليغرام
التين	١٩٤ مليغرام	الزيتون	٥٥ مليغرام	البسلي	٨٩٥ مليغرام
البطيخ	١٠٠ مليغرام	الرمان	٢٥٩ مليغرام	الليمون	١٠٢ مليغرام

وبناءً هذا الاختلاف في الوزن والحساب تتحول أكل الغلات والثمار وخواصها . فإن الإنسان يبهت حينما يقوم بدراسة هذه المواد الغذائية من الناحية الجزيئية حيث يصادف أيما نظام ونسق ودقة وانتظام تمثلها تلك العناصر والجواهر في تركيب تلك المواد . ومن هنا فإن تركيب "شيء موزون" في الآية الكريمة يمثل كلية شاملة جامعة للحقائق .

النمط الموزون في الدنيا النباتية

أما المفهوم الواسع فهو أن هذه الكلية تصدق على جميع المظاهر

النباتية، سواء كانت تتعلق بالجذور والسيقان، أو الأغصان والأوراق، أو الطلع والأزهار، أو الفواكه والثمار. فإن كل شيء في عالم النبات وكل جزء من أجزائه يظهر في صورة معلومة وطريقة معلومة ومقدار معلوم. فإن كل نبت يتكون من أربعة أعضاء: الجذور، والسيقان، والأغصان، والأوراق. ثم يحمل ذلك النبت الأزهار والأثمار في وقت معلوم، كأنها خرجت من عند صانع حاذق أحسن خلقها وتسويتها. فإذا بذرت أي نوع من النبات في أرض ملائم له نبتت نبتة على صورتها النوعية المألوفة في جذورها وسيقانها وأغصانها وأوراقها وحجمها وشكلها. وإذا بذرت آلافا من بذور النوع الواحد لنجم كل واحد منه في شكله المألوف ولم يكن فيها أي اختلاف أو تغاير. ولا يعلم إلا الله من متى دامت فيه هذه المماثلة، فالجذور والسيقان والأغصان والأوراق والأزهار والأثمار كلها تؤدي وظيفتها التي يمليها عليها نوعها. ولا تقصر فيها أبدا، ولا يأخذها نقص أو خلل. فهاكم الأوراق بعضها تكون عريضة، وبعضها طويلة، وبعضها مديدة، والبعض تكون كبيرة جدا أو بالعكس. ومنها ما يكون مطرزا أو بسيطا، وهكذا. فخذ مثلا أوراق الأنبج والتين والببايا والنارجيل والموز والسمر تجد فيها اختلافا كبيرا في الألوان والأشكال. وترى بعض الأشجار لو هُشَّت جميع أوراقها وقضبت جميع أغصانها حتى السوق ألفيتها تعود إلى صورتها الأولى رويدا رويدا فتنبت عليها الأغصان والأوراق والأزهار والأثمار دون اختلاف أو تغيير، حتى الأشواك تنبت في مواضعها الأولى، ومن أمثال هذه الأشجار شُجيرة الورد.

وعصارة القول أن جميع أنواع النباتات وجميع أجزاء تلك الأنواع

تنبت في شكل معلوم ومقدار موزون ونسب محفوظة وفي قوالب متناسبة. وقد اتضح مما أسلفنا أن شيء موزون كلية جامعة شاملة. وقد عُبّر عن هذه الحقيقة في نحو آخر على النحو التالي:

﴿وكل شيء عنده بمقدار.﴾ الرعد: ٨

الشهادة على عليم خبير

وهذه الحقائق السالفة الذكر إن دلت على شيء فإنما تدل على أن هذا الكلام الحق ليس من جنس قول البشر، إن هذا إلا كلام الله الذي خلق هذا الكون الحافل بالأسرار والعجائب. وهو الذي أودع فيه أسرارا خفية لجميع ما خلقه في هذا الكون، لتظهر حقانيته عبر العصور والأزمان المتوالية إلى الأبد، حيث تتطور العلوم والفنون. وهل يقدر على ذلك إلا الله تعالى. وعلى كل فقد ظهرت هنالك ثلاث حقائق:

١- لا بد أن يكون هناك من هو عالم بجميع الأشياء وخبير بجميع المكنونات، وهو الله تعالى:

﴿وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم.﴾ الأنعام: ١٠١

وقال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض.﴾ الحج: ٧٠

وقال تعالى: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض﴾ الفرقان: ٦

٢- إن القرآن الكريم كلام إلهي صادق مكتظّ بالحقائق والمعارف.

٣- ورسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - رسول صادق أمين أنزل عليه هذا القرآن.

وعلى كل فإن هذه التجليات الربانية في الكائنات لتهدم قصر المادية والفلسفات الضالة، ويبطل نظرية "صدفية" هذا الكون. لأنه إذا كان هذا الكون قد ظهر إلى الوجود من جهة المصادفة - بلا خالق وإله - فماذا يكون تأويل هذه الحقائق الأبدية؟

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.﴾ النمل: ٦٤

وقال تعالى: ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.﴾

المحاضرة السادسة

الله يتجلى في عالم النبات

النباتات تشهد على التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت

إن دنيا النبات تحتل مكانة بالغة الأهمية من بين ما خلقه الله تعالى من الأنواع والأجناس على وجه الكون، لكونها تتوقف عليها حياة الإنسان والحيوان. فإنها توفّر لنا قوتنا الذي نتغذى به ومعظم المرافق واللوازم التي نحتاج إليها في هذه الحياة الدنيوية، من الغلال والأعداس والخضراوات والثمار والفواكه والتوابل والأبزار وما إلى ذلك. كما أنها تُمدُّنا بالأدوية المتنوعة التي نحصل عليها من جذورها وثمارها وقشورها وأزهارها وما إلى ذلك. وكما أنها تهيئ لنا الوقود والحطب والفحم والحبال والأخشاب التي نستعملها في تشييد المباني والأكواخ، وفي صنع الطاولات والكراسي والسلات. فكأن حياة الإنسان مرهونة لها في كثير من معانيها. وهكذا فهي صاحبة الأهمية القصوى في جميع المخلوقات الإلهية. والواقع أن هذا الكون لمليء بأمثال هذه الأشياء والحقائق، ولكن الإنسان لا يتنبه لها ولا يقف عندها وقفة تأمل وتفكير ليدّكر بها ويعتبر، وإنما يمر عليها مرا عابرا

سريعا .

فليستعرض الإنسان طعامه

إن الله تعالى قد خلق هذا العالم المادي بتقدير خاص ونظام بديع ، وأودع فيه أنواعا من الدروس والعبر ، والعظة والبصائر ليتأمل فيها الإنسان ويتفكر في مظاهر الكون فيهتدي إلى خالقه الحقيقي ، ويقلع عن التمرد والعصيان. فقد ورد في القرآن الكريم التأكيد الشديد على أن ينظر الإنسان إلى طعامه ، ما هي المراحل المحيرة التي يقطعها حتى يصل إلى أيديه؟ وما هي العوامل المدهشة التي تعمل فيه؟ فقال تعالى :

﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم .﴾ عبس : ٢٤ - ٣٢

إن القرآن الكريم يحث الإنسان في هذه الآيات على أن يقوم بمشاهدة نظام الغلال والثمار ، ويطالع الدور الذي يلعبه كل من الأرض والماء والشمس في إنتاجها ، كيف أن الفلاّح يحرث الأرض ويلقي فيها البذور ويسقيها الماء ، ثم يأتي دور القوى الطبيعية (الإلهية) فتعمل هذه القوى الأرضية والسماوية بطريقة مدهشة على تحويل تلك البذور إلى الأشجار والأنبتة التي تزود الإنسان والحيوان بالغلال والثمار والفواكه. ولو تعطل أي واحد من تلك العوامل فإن الإنسان ليس له إلا أن يموت جوعا .

إن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى دراسة النواحي العديدة للحياة

النباتية، واستعراض أسبابها وعللها في غير واحد من المواضع. وقد ذكر في هذا الخصوص بعض الخصائص المهمة للحياة النباتية. كما أنه ألمع إلى بعض الجوانب التي تثبت وحدانية الله تعالى وإتيان اليوم الآخر. وكذلك كشف القناع عن بعض الأسرار الخفية والحقائق الكامنة في الحياة النباتية. وهذه الحقائق على جانب عظيم من الأهمية في هذا العصر العلمي الحديث.

التشابه بين الحيوان و النبات

إن الأشجار والأنبتة تعتبر من الكائنات الحية من الوجهة العلمية، لأنها تشابه الحيوانات في كثير من خصائصها، مثلا:

١- الحيوانات والنباتات كلتاهما تتكون من مجموعة من الخلايا الصغيرة المشحونة بمادة متحركة تسمى *البروتوبلازما*.

٢- تجري في كلتيهما سنة النمو والترعرع، يعني أنهما تمران بمراحل النمو والازدياء والاكتمال، ثم يصيران إلى الزوال.

٣- يعمل في كلتيهما نظام التنفس، يعني أن النبات يتنفس أيضا مثل الحيوان. والفرق البسيط بينهما أن الحيوانات تستنشق *الأوكسيجن* وتخرج *ثاني أكسيد الكربون*، بينما النباتات على العكس منها تستنشق *ثاني أكسيد الكربون* وتخرج *الأوكسيجن*. وبفضل هذا العمل الثنائي التبادلي يكون الجو محتفظا بمعدل *الأوكسيجن*، وإلا فإن جميع الحيوانات والإنسان يفقدون حياتهم لقلة *الأوكسيجن*. وهذا العمل الإلهي مدهش للغاية ومظهر عظيم من مظاهر الربوبية.

٤- توجد لدى كلتيهما قوة الإدراك والشعور، وكلتاهما تشعر بالألم والراحة. كما أن العالم الهندي الشهير السير جغديش جندر بوس قد أبهر الدنيا العلمية على بكرة أبيها بالقيام بعرض تجريبي في هذا الخصوص.

٥- إنها تأكل وتشرب مثل الحيوانات، ولكنها تقتات الماء والعناصر البسيطة، والحيوانات تستهلك المواد الجاهزة.

٦- إنها تقوم بعمل الزواج فتخصب وتنجب، مثلما تفعل الحيوانات. وإنما أولادها الحبوب والثمار والفواكه التي تُغلّها هي. ولكن الفرق بينهما أن هذا العمل لا يكون مباشرا بالنسبة للأشجار والأنبتة. وهذا باب مشوّق من الحياة النباتية، ولو طوي هذا الباب من حياتها لكان ذلك مؤديا إلى انهدام كيان الحياة الحيوانية والإنسانية. ولذلك قال تعالى:

﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض.﴾ يونس: ١٠١

النسق البديع في الدنيا النباتية

ومما يعلم أن هذه الحقائق مضبوطة مشاهدة ومجربة من الوجهة العلمية. وقد تم حتى الآن اكتشاف أكثر من أربعمائة ألف نوع من الأشجار والأنبتة والكلأ يختلف خصائص كل منها من نوع لآخر، ويتحصل فيها نسق بديع مدهش للغاية. ويظل كل نوع منها محتفظا بخصائصها النوعية عبر آلاف السنين. ولا يحصل فيها أي تخلف أو تفاوت. ومعلوم أن مثل هذا النسق البديع لا يمكن أن يبقى ويستمر تلقائيا، من غير يد مدبرة.

فلا بد من الاعتراف برب خلاق يدبر الأمر من السماء إلى الأرض.

ولكن الماديين اختلقوا *نظرية النشوء والارتقاء* لتعليل هذا النظام القويم والنسق البديع. ولكن هذه النظرية لا خلاق لها من التعليل السليم لمظاهر الكون وحل ألاغيز الحياة ومعميات الكون. بل إنه لا مناص من التسليم بوجود إله واحد أحد. ومن هذا المنطلق يوجه القرآن الكريم الدعوة المؤكدة إلى الناس كافة في غير قليل من المواضع لمشاهدة جوانب الحياة النباتية، ودراسة النظم العاملة فيها، وأخذ النتائج الصحيحة منها والاعتبار بها.

الروائع الإلهية في مشاهد الطبيعة

إن القرآن الكريم يدلل في بعض آياته على وجود البارئ تعالى بذلك الحسن والبهجة والرونق والبهاء الذي يوجد في النباتات:

﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب.﴾ ق: ٧ – ٨

فإن الروعة والجمال التي تملكها الأشجار والأنبتة المتنوعة، إنها إن دلت على شيء فإنما تدل على صنع صانع حاذق في صنعته. فهذه الأزهار الملونة والأوراق المطرزة والأنوار البهية، وما فيها من مزج بديع وتناسق جميل في الألوان المختلفة، إنها تهدي إلى عينيك منظرا فاتنا ومشهدا خلابا، وتنير لك ملامح خلاق قدير أبدع هذه الظواهر الطبيعية، وحلاّها بأصناف من التطريزات وأنواع من الوشي والحلي. وإذا كان هذا الكون البديع قد أتى إلى حيز الوجود تلقائيا وأوتوماتيكيا دون خالق وصانع، فمن أين هذه الروقة وتلك الخلابة في الأشجار والأنبتة، وفي دنيا النبات بأسرها؟

فإنك إذا تفقدت هذه الظواهر النباتية فلا ترى فيها أي تفاوت أو نقص ولا بشاعة منظر ولا قبح صنع. فهل يمكن أن يتأتى مثل هذا النسق البديع والانسجام المدهش دون مدبر ووكيل؟

سنة الازدواج في دنيا النبات

ومن أعظم ما يثير الحيرة والاستعجاب هو سنة الازدواج في دنيا النبات، يعني أنها يوجد فيها الذكر والأنثى مثلما يوجد في الحيوانات. وقد ورد ذكر هذه الحقيقة في القرآن الكريم في شتى المناسبات. يقول عز من قائل:

﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى.﴾ طه: ٥٣

وقال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون.﴾ يس: ٣٦

وقد ثبت من هذا الكشف الرباني أن سنة الازدواج (وجود الزوجين: الذكر والأنثى) كما تجري في النوع البشري فإنها تجري في العالم النباتي كذلك. وكما أعلنت هذه الآية الكريمة أن هناك موجودات كثيرة في هذا الكون تحصل فيها هذه الضابطة، ولكن الإنسان لا يعلم تلك الموجودات.

وجود عليم خبير

تدل الآية الكريمة السالفة الذكر من سورة يس على حقيقتين أساسيتين:

١- إن الذات المبدعة التي سنت هذه الضابطة الشاملة إنها ذات عزة وعظمة وقدرة وجبروت.

٢- وأن الذي أبدع هذا العالَم عالِم بجميع خلقه، خبير بكوامن أسراره وخفايا عجائبه.

ومن ثم فإنه أودع كلامه منذ قرون طويلة أخبارا غيبية عن مخلوقاته الكثيرة وعن الماكينة الباطنة فيها. فإنه مما لا يخفى أن قانون الازدواج في عالم النبات لم يكتشف إلا في العصر الحديث، ولم يكن للإنسان عهد به قبل ذلك. فدل ذلك على أن في الكون وجود خبير يعلم السر في السماوات والأرض، وهو الله الواحد القهار.

الأدلة العلمية على التوحيد والنبوة والقيامة

وقد تمخض هذا البحث عن حقيقتين أخريين:

١- إن القرآن الكريم كلام الله الذي لا ريب فيه، وهو جامع للأسرار الخفية في مظاهر الكون.

٢- إن الرسول الكريم الذي أنزل عليه هذا القرآن، والذي بلّغه إلى الناس كافة، هو صادق أمين لا ينطق عن الهوى، وهو الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين.

إن مثل هذه الحقائق الكونية تبرهن على وحدانية الله تعالى، وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله تعالى. أما الإثبات العلمي للبعث بعد الموت عن طريق الظواهر النباتية فسوف نتكلم

عليه -إن شاء الله تعالى- في المحاضرة الآتية.

انسجام الكون والقرآن

والحقيقة أن استعراض مظاهر الكون (المخلوقات الإلهية) يقيم حجة بالغة على وجود قوة خارقة، ودراسة القرآن المجيد وإمعان النظر فيه يرشد إلى وجود إله خبير. أما المقارنة بينهما فإنها تزيح القناع عن حقيقة باهرة هي أن الله الذي خلق هذا العالم المزخرف هو الذي أنزل هذا الكتاب الحكيم، فتزيد هذه الحقيقة المؤمنين الموقنين إيمانا وإيقانا. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿خلق السماوات والأرض بالحق، إن في ذلك لآية للمؤمنين.﴾

العنكبوت: ٤٤

ومن ثم فإن القرآن الكريم والكون كل واحد منهما يشهد على الآخر. والإنسان نفسه لا يزال يؤيد ما ادّعاه القرآن قبل أربعة عشر قرنا باكتشافاته وإنجازاته العلمية المستجدة. وحتى الآن لم يبطل أي دعوى من دعاوى القرآن. ولن يستطيع الإنسان أن يبطله لأنه تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

العمل الزواجي في النباتات

لقد تمكنت البحوث الحديثة من اكتشاف مليون وربع مليون فصيلة من

الحيوانات والنباتات. ثلثان منها هي الحيوانات والبواقي هي النباتات.[١]

والعمل الزوجي بين النباتات يختلف منه بين الحيوانات. إن الله تبارك وتعالى زيّن الأنثى من كل نوع بالحسن والجمال، لكي تتمتع باستمالة الذكور إليها، وفي دنيا النبات يحصل ذلك في الأزهار. لذلك قد أودع الله تعالى فيها الجذب والفتنة. والأزهار تكون ذكرا وأنثى كذلك. ولكن عملية التلقيح فيها لا تكون مباشرة، على الغالب إنما تتحقق بواسطة الحشرات والطيور والفراش والنحل التي تأتي إلى تلك الأزهار للأكل من عسلها، فتؤدي -على غرة منها- وظيفة مهمة، حيث تلتصق حبوب اللقاح Pollen Grains بأرجل تلك الحشرات. فإذا تنقلت بين الأزهار فإنها تكون سببا في نقل حبوب الطلع إلى مبيض الأنثى فتكون مخصبة وتتحول إلى الثمر. فسبحان من يدبر مثل هذا النظام المتقن، ويهيئ به أرزاق الخلق!

يوجد في هذا العالم قرابة مائتين وخمسين ألفا من أنواع الأشجار والأنبتة المزهرة[٢]، والتي تتحصل فيها هذه العملية بطرق مختلفة. ومن هنا فإن الأغذية التي هي قيام للإنسان والحيوان كليهما إنما تخرج بفضل هذا الاختلاط الزواجي في النباتات. وإذا فسدت هذه الوظيفة فإن الإنسان يحرم حتى من حبة واحدة من الحبوب. فتبارك الله الذي يوفر الأرزاق

---

(١) Issac Asimov, *Asimov's Guide to Science*, Penguin Books, England, Vol.4, P.304.

(٢) *The New Book of Popular Science*, Grolier International INC, 1987, Vol.4, P.64.

للإنسان والبهائم بمثل هذه الطرق التي تكل دونها العقول! ولكن الإنسان يأكل من رزق الله الذي أخرجه له ثم لا يشكر له، يشرب من مائه الذي أنعم به عليه ثم يكفر به ويشرك به سواه، فيكون بعمله هذا منكرا بربوبيته تعالى. يقول الله عز وجل:

﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض.﴾ فاطر: ٣

قدرة الله القاهرة

ولا بد أن نذكر هنا حقيقتين هامتين في هذا الصدد، والتي تقيم حجة ناصعة على وجود الخالق ووحدانيته. أما إحداهما فهي أن الله تعالى قدّر لكل نوع من أنواع الأحياء على وجه الأرض والتي تبلغ عددها نحو مليون ومائتي ألف، ضابطة مرسومة مختصة به. ووهب له أعضاء تناسلية خاصة حسب ضابطته المرسومة، ليكون كل من الزوجين مطابقا مع الآخر وكفؤا له. وهذه الأعضاء النوعية والضوابط النوعية المخصوصة ليست ناتجة عن النشوء والارتقاء - كما يثرثر الماديون، وإنما هي رسوم مشرقة لخلاقيته تعالى وربوبيته. فإنه مما هو ثابت عقليا ومنطقيا أن الملاءمة التي توجد بين أعضاء الزوجين من كل نوع من أنواع الأحياء الكثيرة، إنها لا يمكن أن تكون تلقائيا في مادة لا تسمع ولا تبصر. ومن ثم فإن القرآن الكريم يعتبر هذا التنوع في الأنواع، وسنة الازدواج التي تجري في تلك الأنواع دليلا باهرا على قدرة الله القاهرة ووسيلة للاهتداء إليه:

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها.﴾ يس: ٣٦

يقول الله تبارك وتعالى أنه خلق كل زوجين PAIR من جميع الأزواج المختلفة خاصة بحيث يتلاءم كل زوج مع الآخر. كما قال تعالى في مقام آخر:

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين.﴾ الذاريات: ٤٩ - ٥٠

يعني أن من يشاهد هذه الضابطة القويمة فإنه ليس له إلا أن يفر إلى الله تعالى. ولا ينكر هذه الحقيقة البديهية إلا جاحد معاند.

الكرامة في النباتات

وأما الحقيقة الأخرى فهي أكثر إثارة للدهشة والاستعجاب، وإنما هي بمثابة المسمار الأخير في نعش المادية وهي أنه لا يقع هناك أي خلل ولا اضطراب في عالم النباتات، كأن يخصب نوع منها بلقاح نوع آخر، بمجرد هذه السنة الزواجية الشاملة. فهل هذا إلا لأن هناك يدا تدبرها من وراء الستار، وهي التي تحفظها وترعاها. وإلا كان من الممكن أن يخصب نوع من نوع آخر تماما. كأن تخرج الجوافة من شجر الأنبج، أو الرمان في شجرة البرتقال، أو الببايا في شجرة الموز، أو أن تطلع أزهار الياسمين على شجرة الورد، وقس على ذلك. فابتعاد العالم النباتي من مثل هذه "النغولة" إنما ينبئ عن عفة الحياة النباتية والتي لا تخصب إلا من لقاح نوعها، وترفض حبوب اللقاح الأخرى، وإن توصلت إليها تلك الحبوب.

ينبغي أن أذكر هنا بعض التفاصيل النباتية التي تساعدنا في فهم هذه

الحقيقة الكبرى. فكما أسلفنا، أن عملية الإخصاب في النباتات تتحصل في الأزهار. وهذه العملية لا تكون مباشرة، ولكن بواسطة الحشرات والفراش والنحل والذباب والهواء وغير ذلك. فإن حبوب اللقاح التي تلتصق بأرجل هذه المخلوقات الصغيرة إنها تصل إلى مبيض الأنثى OVARIES من الأزهار فتكون سببا في إخصابها وإثمارها. وهذه العملية يطلق عليها *التلقيح* POLLINATION في مصطلح علم النبات. وإن شئت أن تشاهد عجائب قدرة الله تعالى وربوبيته، فتصور حديقة حافلة بالأشجار المنوعة والأنبتة المختلفة. فإنك تجد هناك وسطاء التلقيح (الحشرات) تتنقل بين الأزهار المختلفة من هنا إلى هناك، ومن هذا إلى ذاك، وتمتص أعسالها الحلوة. وعلى الغالب تكون هذه الوسطاء سببا في إيصال لقاح نوع إلى نوع آخر تماما. ولكن هذه الأزهار لا تخطئ أبدا ولا تأخذ إلا الحبوب التي تتصل بنوعها. فهل تستطيع الوجهة المادية أن تفسر هذه العملية المدهشة؟ وهل يسعها أن تحل هذه الألغوزة بدون الاعتراف بذات مدبرة منتظمة؟ وإذا كان نظام هذا الكون ونسقه البديع تلقائيا وأوتوماتيكيا، فما الذي يمنع شجرة المنجة من أن تنبت بالجوافة أو شجرة الرمان من أن تنبت بالسفرجل الهندي. هذا هو سؤال خطير يطرح نفسه على الدنيا العلمية على بكرة أبيها ويتحداها أن تأتي بتفسيره المنطقي السليم إن استطاعت، ولن تستطيع على رغم أنفها. ومن هنا فإن القرآن الكريم لا يسرد الحقائق سردا عاديا، وإنما يحدد اتجاه الفلسفة، ويمنحها معالم مستجدة، ليكون في ذلك إصلاح للنظر وتهذيب للفكر.

القرآن يكشف حقيقة كبرى

وقد ثبت من هذا العمل النباتي أن هذا الجانب من حياتها جانب كريم جدا حيث إنها لا تقبل لقاح أي نوع آخر غير نوعها، وإلا سبَّب ذلك مشكلة كبرى للنوع البشري. ومن أجل ذلك، تَوَّجها الله تعالى بشهادة الكرامة في كلامه المجيد. وكانت هذه الحقيقة تحت غطاء من الخفاء حتى الكشوف الحديثة. قال عز وجل:

﴿وأنزلنا من السماء ماء، فأنبتنا فيها من كل زوج كريم.﴾ لقمان: ١٠

وقال تعالى: ﴿أولم يروا إلى الأرض، كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم.﴾ الشعراء: ٧

فإن القرآن الكريم قد استعمل هنا مركبا توصيفيا للنباتات، وهذا المركب هو "زوج كريم". و"الزوج" يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى. فإذا أريد كلا الذكر والأنثى قيل "الزوجين". وهذا هو المعنى الحقيقي لهذه الكلمة. وقد استعملت مجازا بمعنى الصنف والنوع. فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان.﴾ أي صنفان.

وقد كان العلماء قبل العصر الحديث يأخذون هذه الكلمة في معناها المجازي، ولكن الآن قد تيسر لنا أن نستعمل هذه الكلمة في معناها الأصلي في ضوء الكشوف الحديثة. وعلى كل، فإن الله تعالى قد أضاف هذا العمل النباتي إلى نفسه، ليدل ذلك على أن هذه السنّة لم تكن أوتوماتيكيا، وإنما هي من عند الله تعالى.

القرآن أمين على أسرار الكون

إن هناك سلسة لا متناهية من الأسرار والعجائب التي أحصاها هذا القرآن الحكيم قبل قرون طويلة، لكي تكون تلك الأسرار تنبيها للنوع البشري وتذكيرا له على مر الأيام وكر العصور، ولذا قال تبارك وتعالى:

﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.﴾ الفرقان: ٦

وهذا العالم المادي بما فيه من الخلائق والمظاهر بأسرها سائر دائب تحت رقابة الله تعالى ورعايته من الوجهة الطبيعية. وليس هناك شيء واحد يخرج من هذه السيطرة الشاملة أو ينسلخ من هذه الرقابة الدقيقة، إلا الإنسان، فإنه قد أعطي خيرةَ الامتياز بين الخير والشر، وحريةَ الفكر والعمل من الوجهة الشرعية والخلقية:

﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل.﴾ الزمر: ٦٢

وقال تعالى: ﴿بل له ما في السماوات والأرض، كل له قانتون.﴾
البقرة: ١١٦

التخطيط الإلهي ودلائل الربوبية

إن للقرآن الحكيم - كما أسلفنا - أسلوبا خاصا في بيان مختلف الظواهر النباتية وجوانبها العديدة. وإنه يؤكد على الإنسان أن ينعم نظره في تلك الظواهر والنظم العاملة فيها من وراء المنظار العلمي. لأن في ذلك - كما يقول القرآن الكريم - لآيات لقوم يؤمنون:

﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون.﴾
الأنعام: ٩٩

فإنه لا يوجه مثل هذه الدعوة إلا من قام بنظم هذه المظاهر المختلفة وهذا الكون البديع بكل نسق وانتظام. ولذلك جاءت تلك الحقائق كلها طبق التخطيط الإلهي وكما ذكرها القرآن الكريم بأسلوبه المتفرد. والإنسان نفسه يثبت حقانية القرآن الكريم من خلال اكتشافاته وبحوثه. فعلم من ذلك أن هذا الأمر ليس أمرا عاديا، وهذا القرآن الكريم ليس كلاما عاديا، وإنما هو شيء عظيم فريد من الوجهة الفلسفية، ويجب على النوع البشري أن يهتم به. وهو كلام لا يوجد له نظير في جميع الآداب البشرية، حيث إن تصريحاته كلها تزداد وضوحا وجلاء على مر الأيام في ضوء الكشوف الحديثة. ومع ذلك لم تبطل هذه الكشوف أي دعوى من دعاويه.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم صحيفة سماوية أخيرة، حفظها الله تعالى من كل تحريف ونسخ. وهو كلام حق يصدق على محك العلم والعقل، ويسدد فكر الإنسان في كل عصر، ويهديه إلى معالم جديدة من وجهة العلم والفلسفة.

ومحاضرة اليوم ليست إلا بمثابة لمحة خاطفة عن بعض الظواهر النباتية. وسوف نتعرض لها بمزيد من التوسيع في المحاضرة الآتية - إن شاء الله تعالى -، وأخص منها ما يوفر دليلا علميا ظاهرا على وقوع القيامة، وهي بمثابة سوط للإنسان المتناعس.

صحيفة عظيمة خالدة

والواقع أن النظر العميق في عالم النبات يشير إلى قادر ذي قوة خارقة، وإلا فأني له هذا التنسيق والتخطيط، وهذا الحسن والبهجة، وهذه الحكمة البالغة. ومثل هذه الدراسة يكون ترسيخا للإيمان في النفوس. ولذلك إن العالِم الطبيعي أمكن من أن يصبح موحّدا صادقا. ولا يمكن ذلك إلا إذا قام بالتطبيق بين الدين والعلم. أما الفصل بينهما فإنه يكون سببا للعواقب الوخيمة. والمجتمع الذي أسس على هذا الفصل لا يتقدم أبدا.

والقرآن الكريم هو دليلنا في هذا الطريق، وهو الذي يدعو الإنسان إلى القيام بالتفكير الوسط في نظام الكون واستنباط النتائج السليمة في ضوء وجهة عادلة متزنة. ومن أبهر الإعجاز القرآني أنه يقوم بهداية النوع البشري حسب المتطلبات المتغيرة من عصر لآخر، وذلك جزء من نظام الأدلة فيه.

والواقع أن القرآن الكريم ذلك الصحيفة الأبدية دائم النضرة والطلاوة، حيث أنه أُودِع كفاءة التوجيه والإرشاد وفق نفسية العصور المختلفة إلى الأبد. والحقائق المكنونة في غضونه لا تزال تباغت النوع البشري عبر العصور والأزمان. فقد ورد في الحديث النبوي الشريف:

ولا تنقضي عجائبه.[٣]

---

[٣] رواه الترمذي.

المحاضرة السابعة

العلم الحديث يشهد بوقوع القيامة

إذا مات الإنسان وذهب أثره وأصبح ترابا ورفاتا، فهل يمكن أن يخلق خلقا جديدا؟ تظهر من بعض الحقائق البيولوجية أن الأمر ممكن حقا. بل الواقع أن التحقيقات العلمية الحديثة تستطيع أن تقوم بتفسير بيّن مقنع لهذه العقيدة - عقيدة "البعث بعد الموت"، التي أنكر بها الكفار والمشركون، وجحد بها الماديون والملحدون عبر القرون. فإن هؤلاء الملحدين يظنون أن هذا العالم ليس له خالق ومدبر، وأنه جاء بنفسه تلقائيا على هذه الصورة المتكاملة، وأن كل ما فني من هذا العالم مرةً لا يعود إلى ما كان عليه أبدا. فالإنسان كذلك إذا مات وأكلته الأرض فلا يمكن أن يُرَدَّ إلى حالته الأولى. وأن القول بالنشأة الثانية لقول سخيف لا يجوزه العقل. ولكن الأديان تجزم بعقيدة القيامة كمثل جزمها بعقيدة التوحيد والرسالة، وأن يوم الحساب يوم عظيم يأتي لا محالة، يخلق الله فيه جميع الناس خلقا جديدا فيحاسبهم على أعمالهم ويجازيهم عليها. ولما كانت عقيدة المعاد من العقائد الأساسية في دين الإسلام فقد جاء الله تعالى بالنظام الكوني كدليل

وشاهد عليها في كلامه الحكيم، لتكون عقيدة المعاد مؤيدة بالأدلة العقلية، ولئلا يجوز للطغاة والمنكرين بعد ذلك أن يكفروا بها. فكل ما نرى في القرآن الكريم من التأكيدات الشديدة على التفكر في النظام الكوني، ولا سيّما ما جاء فيه من الحثّ على القيام بالغور في المظاهر البيولوجية من الناحية العلمية إنما كان كل ذلك من أجل أن يعثر الإنسان من خلال تلك النظم المدهشة على أدلة وشواهد تخبر بأن الله واحد وأن ما يوعدون به من البعث بعد الموت لحق.

شهادة النباتات

من بين تلك الشواهد التي وضعها الله تعالى في عالم الأحياء Biological World تصديقا للنشأة الأخرى ترى شاهدين اثنين يمتازان بأهمية عظيمة: أما أحدهما فهو الشهادة التي تؤديها الحياة النباتية. وأما الآخر فهو البيّنة التي يقدمها تطور "الجنين" في بطن أمه.

فقد رأينا من العادة التي جرت في الدنيا النباتية أن البذرة الصغيرة التي تبذر في الأرض فتنبت فتكون دَوْحة ثم تخرج منها بذور مثل البذر الذي كان منه إخراجها في المرة الأولى. أفليس بعجيب أن شجرة عظيمة تنبت من البذرة الصغيرة بحيث تتوافر فيها جميع خصائصها النوعية؟ ثم إنك تراها يأتي عليها الخريف فتتساقط أوراقها، وتُحْرَم الأرض غضاضتها وطراوتها واخضرارها، حتى كأن الدنيا النباتية تُمْنَى بحالة أشبه بالموت. ثم يأتي الربيع وتجود السماء بالمطر فترى الأرض لابسة حلل الربيع متبخترة فيها، وترى الأشجار يعود إليها الرطوبة والغزارة، فكأن الأرض كانت ميتة

فأحياها الله تعالى لتصوّر مشهدا من مشاهد القيامة والبعث بعد الموت. والنباتات تمر بهذه الحالة - حالة الموت والحياة - في كل سنة، ولكن الإنسان لا يلتفت إلى هذا الجانب المدهش للحياة النباتية ولا ينظر إليها بنظرة الاعتبار. أما إنه إذا قام بمشاهدة الحياة النباتية مشاهدة من يتصفّح الحقائق فلا يجد مندوحة عن الإيمان باليوم الآخر.

شهادة الجنين

والشاهد الآخر على المعاد الجسدي يتمثل في "الجنين"، الذي يمرّ بمراحل التطور في بطن أمه. وهو يخرج من النطفة - قطرة من ماء مهين - كما أن الأشجار والأنبتة تخرج من البذرة الحقيرة. وقد اكتشف العلماء بتحليل النطفة تحليلا مجهريا أن المنيّ الذي ينزله الرجل في الدفعة الواحدة يحتوي على مائتين وخمسين مليونا من الجراثيم المجهرية (الحيبات). ومن تلك الجراثيم الكثيرة تظهر واحدة منها فتتحد ببويضة الأنثى وتجعلها لاقحا. وهذه الجرثومة الصغيرة الأحادية الخلية تحتفظ بجميع الخصائص الوراثية للرجل. كما أن بويضة الأنثى تحتفظ بجميع الصفات الوراثية للمرأة. فكذلك الطفل ينزع أحيانا إلى أبيه وأحيانا أخرى إلى أمه. فهل يا ترى هذا الشيء الأصغر وهو يحافظ على "الجدول الوراثي"، والجنين يتطور وينشأ على حسب ذلك الجدول في مدة تسعة أشهر حتى يظهر إنسانا سوياً.

وحدة الحياة

ولقد علم بدراسة النبات والجنين أن الحيوانات والنباتات كلها يرجع

إلى أصل حقير يخرج منه، ثم يبلغ أشدّه فينتج أشياء صغيرة تكون أصولاً لأحياء أخرى تخرج منها صغيرةً، ثم تنمو وتكبر فتعيد ذلك العمل، وهكذا تدور دورة الحياة.

إن الحيوانات والنباتات قد وُجِدت سهيمة في كثير من الصفات المشتركة. منها أن كلا النوعين يكونَ في أصله مجموعة للخلايا الصغيرة المشاهدة بالمجهر. وكل جزء من أجزاء الجسم الإنساني من اللحم والدم والعظم والشعر يكون مركبا من مثل هذه الخلايا. وكذلك يكون كل طرف من أطراف الأشجار والأنبتة. وتكون في داخل هذه الخلايا مادة غرائية دائمة الحركة تسمى "البروتوبلازم". وكل واحدة من هذه الخلايا تكون وحدة "للحياة" ومعملا كاملا في حد ذاتها. والجنين أيضا في أول أمره يكون حيّا ذا خليتين، خلية للرجل وخلية للمرأة. وكل واحدة منهما تحمل مجموعة الصفات الوراثية في سلسلة من الكروموسومات، كما أن البذرة الواحدة للأشجار والأنبتة تحمل جميع الصفات النوعية والوراثية في سلسلة من الكروموسومات. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدع أن يعاد جسد الإنسان إلى ما كان عليه - ولا يكون ذلك أمرا مستحيلا من الناحية العلمية نفسها - فيما إذا كانت خلية واحدة من خلايا الإنسان الكثيرة آمنةً من البلى والزوال في بطن الأرض.

الجراثيم الهامدة

وقد ثبت بالبحوث الحديثة بأن هناك كثيرا من الجراثيم الوحيدة الخلية تبقى في الأرض إلى أمد بعيد من الزمن في حالة الموت ثم تعود إليها الحياة.

وقد اطّلع العلماء فعلاً على بعض الجراثيم من هذا النوع أنها ظلّت حية، وهي ساكنة صامتة، إلى مدة مديدة من أجل الأوضاع النابية من قلة الرطوبة أو فقدان الغذاء أو بسبب درجة الحرارة المتزايدة. وتمتد بها هذه "الحالة النعاسية" آلافا من السنين إلى أن تقدّر لها ظروف مؤاتية فتعود إليها الحركة وتكون قادرة على إجراء وظائف الحياة. وهذا النوع من الجراثيم يسمى "أسبور" Spore (الجراثيم الهامدة). وكذلك بعض البذور تحيا في حالة من السنة إلى ألوف السنين.[١]

الكشف عن أسرار الحياة

ومما يجب أن يعلم أن هذه الجراثيم الوحيدة الخلية تكون لا جنسية، وهي تتكاثر بالانقسام الذاتي كل عشرين إلى ثلاثين دقيقة. فمن الواحدة إلى اثنتين ومن اثنتين إلى أربع، ومن أربع إلى ثمان، ومن ثمان إلى ست عشرة، وهكذا. والجنين أيضا ينشأ بمثل هذه العملية في بطن أمه. والبذور كذلك تتزايد خلاياها لتكون شجرة عظيمة. أفلا يمكن - إذن - أن تكون هناك خلية من خلايا الإنسان لا تأتي عليها يد الفناء فتبقى آمنة لتصبح حيّة من جديد إذا ما أتاح الله لها أجواء ملائمة؟ أفلا يجوز أن تتحول تلك الخلية إلى أن يظهر منها الجسم الإنساني بكل مواصفاته؟ ربما تقول في هذا المقام أننا كثيراً ما نشاهد أن الشجرة تخرج من البذرة أو أن الجنين يُخْلَق من النطفة، ولكننا لم نعثر على أي مثال للنشأة الثانية للجسد الإنساني الميت

---

(١) *Encyclopaedia Britannica*, 1983, Vol.10, P.893.

من الخلية التي تُحَدّثَ عنها؟ ولو أننا سلمنا ما تقول فما هي الطريقة التي يكون بها هذا الخروج؟ فهاهو النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - يجيب على هذا الإشكال قبل أربعة عشر قرنا بلسانه البليغ. وجوابه هذا قد أصبح ذا أهمية كبرى في العصر العلمي الحديث. فقد جاء فيما رواه الشيخان البخاري ومسلم - رحمهما الله - في صحيحيهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه :

" . . . *ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل. ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظما واحدا، وهو عجب الذنب، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة*" .[٢]

وجاء في حديث آخر مشرحا لهذا المبدأ أن عجب الذنب شئ مثل حبة خردل.[٣]

والمعنى أن ذلك العظم (عجب الذنب) عندما أصابته رطوبة ذلك المطر أنشأ يربو كما تربو البذرة أو الخلية. ولما كان ذلك العظم (الخلية) "صورة مصغرة" للإنسان بجميع أطرافه وخصائصه - كمثل البذرة تتضمّن بنية الشجرة وما يكون لها من الصفات النوعية والوراثية - يكون خلقه الثاني على ما كان عليه خلقه الأول من الأطراف والأعضاء والملامح والتقاطيع. ولا فرق بين الخلق الأول والثاني إلا أن الجنين يكمّل نموَّه في بطن أمه في مدة تسعة أشهر في خلقه الأول، وأما في الخلق الثاني فإن جميع مراحل النمو

---

[٢] صحيح البخاري: ٦/ ٧٩ ; صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٧١ .

[٣] أنظر فتح الباري: ابن حجر العسقلاني، ٨/ ٥٥٢ .

ربما تكتمل بسرعة مدهشة، فما هي إلا صيحة واحدة وإذا هم يخرجون من الأجداث سراعا. كما قال تعالى:

﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون.﴾ يس: ٥١ : ٥٣

الأدلة القرآنية

وخلاصة القول أن عقيدة المعاد الجسدي أو البعث بعد الموت ليست مما يكون مردودا من الناحية العلمية، وإنما هي عقيدة يشفع لها العقل ويهدي إليه القياس. ومن أجل ذلك أكّد القرآن الكريم على أن يتذكر الإنسان بالنشأة الأولى ويستدلّ بها على النشأة الثانية يوم القيامة. قال تعالى:

﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون.﴾ الواقعة: ٦٢

كما أن القرآن الكريم في بعض مواضعه يذكر أنواعا من المظاهر النباتية ويتعجب من أولئك الذين يشاهدون تلك المظاهر ثم يستبعدون وقوع القيامة. فكأنهم في إنكارهم بيوم القيامة ساهين عما يشاهدونه من المظاهر العجيبة في الدنيا النباتية يذهبون مذهبا بعيدا عن العقل. قال تعالى:

﴿وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد.﴾
الرعد: ٥

كذلك، وإن القرآن الكريم يتخذ من إحياء الأرض الميتة بعد موتها دليلا على الحشر والنشر. قال تعالى:

﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحي الموتى، وهو على كل شيء قدير.﴾ الروم: ٥٠

وقد أجمعت كافة الشرائع السماوية على أن يوم القيامة يوم لا ريب فيه، يوم يأتي به الله لا محالة، ولا مجال للإنكار به أو الحيرة منه. ولما جاء يوم الحشر وبعث الإنسان من الأجداث ظن أنه كان نائما فبعثه أحد. وعلموا هنالك أن المرسلين كانوا صادقين فيما جاءوا به. كما قال تعالى:

﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.﴾
يس: ٥١ - ٥٢

وقد ظهر من هذا البحث الموجز أن الإسلام دين صادق حق ظهرت عقائده ونظرياته صادقة مشرقة، وحتى في العصر العلمي الحديث. لأنه دين الفطرة، وهو دين لم يأت به أحد من البشر من عند نفسه. وإنما أنزله ذلك الحيّ القيّوم الذي فطر السماوات والأرض، حتى كانت الشريعة والطبيعة إلفين متآلفين. ولو كان هذا الدين من مختلقات البشر لم يمكن أبدا أن تكون الشريعة والطبيعة متساوقة متناغمة فيما بينهما. لأن الأفكار والنظريات البشرية شيء يعتريه التغيير والتحوير بين كل حين وحين، ولا تدوم على حال واحدة حقبة من الزمن. فإن القوانين والنظريات التي

كانت شائعة قبل قرن أو قرنين فقط، لم تنشب أن أصبحت مهجورة منبوذة في العصر الراهن، بَلْهَ النظريات التي احتضنها الإنسان قبل أربعة عشر قرنا. وهذا ما يدعو جميع النوع البشري وسائر أولي الألباب إلى أن ينتهجوا منهج التفكر والتدبر في هذا الأمر العظيم.

الملاحظة: قد كتبت هذه المقالة (المحاضرة) عاجلا فلا تشتمل جميع نواحي هذه المسألة. وللبحث والتفصيل المزيد فليراجع إلى كتابي "القرآن الكريم وعلم النبات" بالأردية والإنكليزية.

المحاضرة الثامنة

العصر الفضائي الحديث والطلاوة السرمدية للقرآن الكريم

من أهم ما يمتاز به القرآن الكريم هو أنه حيث كان كلاما أبديا يخاطب الناس في جميع العصور، فهو لذلك قد أحاط بجميع العصور المختلفة وكيفياتها وأحوالها بحثا وتفصيلا. فلقد كان هذا الكتاب الحكيم كتابا سرمديا دائم الجمال والبهاء، كامل الاستيعاب للحقائق والأمور الواردة إلى يوم القيامة، حتى يحق له أن يكون هداية للبشرية جمعاء في جميع العصور. مما جعل القرآن بادياً عليه أنوار الطلاوة، لابساً حلة الجدة والطراوة، طاهراً عن مشاين الهرم والقدامة. قال الله تعالى عن القرآن العظيم:

﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم، أفلا تعقلون.﴾ الأنبياء: ١٠

وهذا خطاب عام لا يختصّ بزمن دون زمن.

ولقد سُمي القرآن الكريم في كثير من المواضع بـ "الذكر" و "التذكرة"

و"الذكرى". وهذه الكلمات تطلق على ما يجعل الإنسان يتذكّر شيئا أو أمرا. وسُمي بها القرآن الكريم من أجل ما فيه من بيان للعلوم العصرية والقضايا الحديثة، ومن الاكتشافات الجديدة تذكرةً للنوع البشري. وعندما يتوصل الإنسان إلى تلك الحقائق والاكتشافات في الوقت المحدّد لظهورها ظهرت تلك الحقائق في مظهر الحقائق القرآنية وتجدّد الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وأفصحت حقيقة الأمر كالشمس في رائعة الضحى أن هذا القرآن نازل من عند الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عنه شيء من عالم الغيب والشهادة، ولا يعوزه علم الظاهر والباطن. فهو من أجل ذلك يدعو النوع البشري بدعوات مؤكدة ومكررة إلى أن يتدبروا في آيات كلامه العظيم ويبتغوا الوصول إلى دلالاته ومراميه، لأنه كلام زاخر بالأسرار الكونية وأمين عليها وحافظ لها، لا يقف عنده أحد يتدبره ويلتمس معارفه إلا وجد عالما جديدا لم يعرفه، وآفاقا رَحْبة لم يشاهدها من قبل. ولذلك قال الله تبارك وتعالى:

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾

ص: ٢٩

وقال تعالى: ﴿إن في ذلك لزكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.﴾ ق: ٣٧

وقال تعالى: ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى.﴾ طه: ١-٢

وقال تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين.﴾ ص: ٨٧-٨٨

ميزة عظيمة من ميزات القرآن

إن هذا العصر هو عصر الفضاء. وفي هذا العصر الفضائي الراهن كذلك جاء القرآن الكريم حقا وصادقا في دعواه بأنه ذكر للناس أجمعين إلى يوم القيامة. وذلك أن هذا الكتاب الحكيم عند ما يتدبره الإنسان في هذا العصر فهو يلاقي فيه ذكرا مبدئيا للمسائل المتعلقة بالفضاء، كما أنه يشاهد أن القرآن لا يرضى بهذا القدر من الذكر البسيط، إلا أن يتجه إلى الطبيعة المادية المهيمنة على رجال العصر فيكشف عنها، ويناقشها في أسلوب مبتكر رائع. ومن الخصائص التي تفرّد بها القرآن الكريم أنه يجيء بألفاظ واضحة متزنة، حافلة بالحقائق والمعاني. وكثيراً ما تكون ألفاظه ذات معان، وفي معرض المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة. فلا تكون مهملة أو غير مفهومة في أي زمن من الأزمان، بيد أنها تبرز في زيّ قشيب من المعاني، ناطقةً بالإعجاز القرآني عند كل تقلب من تقلبات الزمان حيث تصرّح حقيقة من الحقائق عن محضها، فيقف الإنسان مبهوتا حسيرا عندما يلاحظها في القرآن الكريم. وعلى نحو هذا المنهج كان القرآن الكريم حافظا للأسرار الكونية الغامضة بطرازه الخاص البديع.

الصعود إلى الفضاء والرؤية القرآنية

وفي العصر الفضائي الحديث تحتل صنعة الصواريخ وفتح الفضاء

مكانة بالغة من الأهمية مبلغها، وقد ورد ذكرها في الكلام الإلهي الأبدي في شتى المواضع وبشتى الحيثيات. فاستمعوا معي إلى قول الله تعالى في سورة الرحمن وهو يخاطب الجن والإنس:

﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا، لا تنفذون إلا بسلطان.﴾ الرحمن: ٣٣

ويصف المعنى نفسه بكلمات أخرى في سورة ص حيث يقول: ﴿أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب﴾ ص: ١٠

وهاتان الآيتان يشرح بعضهما البعض، وهما يتضمنان إشارة واضحة إلى صنع الصواريخ، ودلالة صريحة على أن الإنسان يحرز التقدم الملموس في عالم الفضاء، وأنه يستطيع أن يصعد إلى الكواكب الأخرى. كما أننا نرى القرآن الكريم في سورة الانشقاق يقول بكلمات واضحة صريحة بعد ذكر القمر: ﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾ أي إنكم لتصعدن منزلا بعد منزل.

ملاحظات على طبيعة العصر الحديث

هذا ما كان عن صنع الصواريخ واختراق الطبقات السماوية. وأما الفكرة المادية ومعارضتها في هذا العصر الفضائي فإننا نشاهد أن القرآن الكريم ذلك الكتاب الخالد قد قام ببعض التنبؤات في هذا الصدد. وقد استقرت تلك التنبؤات بطريقة مدهشة في العصر الحديث، حتى إنه ليخيّل أن القرآن الكريم لم يكن نزوله قبل أربعة عشر قرنا، وإنما نزل آنفا. ومن

ذلك أنه لما صعد أول رائد فلكي روسي Yuri Gagarin في الفضاء عام ١٩٦١م، وعاد إلى الأرض بعد قطع ارتفاع يبلغ مجرد ١٦٥ ميلا من الأرض، أصبح هو والرئيس الروسي في ذلك الوقت Khrushchev يجهرون لغباوتهم وحمقهم: "إننا لم نطلع على أي إله في الفضاء". إنهم وإن لم يكونوا قد قاموا بالملاحة الفضائية ليبحثوا عن وجود الإله فيه أو عدمه، ولكنهم لم يلبثوا أن تشدّقوا باعتراض سفساف ليصدّقوا ما قد تنبّأ به القرآن الكريم حيث قال:

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلّوا فيه يعرجون. لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون.﴾ الحجر: ١٤- ١٥

إنهم قالوا ذلك رغم اعتراف ذلك الرائد الفلكي بأنه مع ما كان به من حرص شديد على مشاهدة القمر من الفضاء لم يستطع أن يشاهده من مقصورته التي كان فيها. فيا ليت شعري إنه لم يستطع أن يشاهد جرما مستنيرا مثل جرم القمر وقد بذل من الجهود ما بذل، فكيف به أن يشاهد من فاقت لطافته كل شيء! فما له لم ير بأسا في أن يكيل ذلك التقول الباطل! ومن هنا كانت هذه الآية الكريمة خير مَظْهر لطبيعة الجاحدين المعاندين ونفسيتهم، وكأنها تُجَهْوِر بما يهمسون به بلسان الحال.

هل عندكم من سلطان مبين

والسؤال الجوهري الذي يرد في هذا المقام هو أن الرائد الفلكي الروسي هل رأى في الفضاء شيئا دفعه إلى الإنكار بوجود الله تعالى؟ وهل اطلع على سلطان مبين أو دليل إيجابي؟ كلا، إنه لم يفعل شيئا من ذلك، وإن

اعتراضه لا يعدو أن يكون اعتراضا سلبيا، مع أن القرآن الكريم يطالبهم بأن يأتوا بدليل إيجابيّ إن استطاعوا، فقال تعالى:

﴿أم لهم سلّم يستمعون فيه، فليأت مستمعهم بسلطان مبين.﴾
الطور: ٣٨

هذه الآية الكريمة أيضاً تتحدث عن العصر الفضائي الحديث. فكلمة "السلّم" في الآية الكريمة تشير إلى الصاروخ. وهذه من كنايات القرآن.

وعلى كل، فإن المنكرين لا يستطيعون أبدا أن يأتوا بدليل إيجابي على ما يذهبون إليه بغير علم. لأن الله تعالى لم يخلق في هذا الكون شيئا يصلح أن يكون برهانا إيجابيا أو منطقيا على الإنكار بذاته تعالى. وكل ما يعوّل عليه المنكرون إن هو إلا شبهات وتقوّلات لا تسمن ولا تغني، وهي ليست إلا رميا في ظلام أو خبطا خبط عشواء. وكيف، وإن كل شيء من أشياء الكون المادي، وكل ذرة من ذرات النفس البشري إنما هي أصدق دليل وأبين سلطان على وجود البارئ تعالى.

وهكذا فإن القرآن الكريم كتاب ولا كمثل كتاب، كتاب لا تزول طراوته أبدا، كتاب لا يعجزه أبداً أن يقوم بهداية النوع البشري في ظل الطبائع المتغيرة في العصور المختلفة، ولا يفوته حقا أن يقاوم النفسيات الضالة إلى يوم القيامة. وهذا من أعظم معجزات القرآن الكريم.

مقالة جديدة

الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي

التجربة البشرية دحضت المادية وأظهرت مصداقية العقائد الإسلامية

إذا مات الإنسان، وفنيت أعضاءه وجوارحه، وانتشرت عناصره التي خلق بها، وأمسى عظاما ورفاتا فهل يمكن أن يُعادَ إلى حالته الأولى من جديد؟ فقد ألفينا الجماعات والأمم الذين لا يؤمنون بقدرة الله تعالى مازالوا ينكرون هذه الحقيقة ويكفرون بها. أما الملحدون والعلمانيون فإنهم يعدّونها أسطورا من الأساطير اختلقه الذهن البشري، ويظنون أنها عقيدة لا حيّز لها في عالم الواقع، وفكرة يشرد عنها العقل والمنطق.

إن الساعة آتية لا ريب فيها

ولكن الاكتشاف الأخير الذي نفّذه العلماء في مجال الاستنساخ الجيني Cloning – وهو توليد "مزدوج حيواني" توليدا صناعيا من الخلية رأسا، وبدون العمل الجنسي – ليوفّر حجة قاهرة على عقيدة النشأة الثانية للجسد

البشري يوم القيامة على صورته التي خلق عليها، ويثبت خاتم التصديق على حقانية العقائد الدينية. وأياً ما كانت الدوافع إلى إجراء هذه التجربة، والأهداف المأمولة من خلالها ولكن هذا الاكتشاف المذهل قد أوصل اللادينيين والعلمانيين إلى موقع لا يكادون يتجاسرون منه على الإنكار بوقوع القيامة مهما كانوا ألدّاء في إلحادهم ولادينيتهم. بل إن الواحد من النوع البشري لا يجد في قلبه أيّ حرج في الاستيقان بحقانية عقيدة القيامة. هذا هو الاكتشاف الانقلابيّ العظيم الذي وَدَعَ النوع البشري قاطبة في حالة من الدهشة والانبهار.

الإنسان يُزرع في المعامل العلمية

لقد كان العلماء الطبيعيون وأذنابهم ممن انبهروا ببريق الفلسفات والعلم من السبّاقين إلى الإنكار بوقوع القيامة، وأن الإنسان إذا مات وانقطعت عنه أسباب الحياة فكيف يمكن أن تعود إليه تلك الحياة؟ وكانوا يظنون ذلك عقيدة خرافية فارغة. ولكن العالم الاسكتلندي إيان ويلمونت قد أقام الدنيا وأقعدها بما قام به من تجربة علمية مثيرة باستزراع خلية من النعجة عالجها في المعمل لتنجب "مزدوجا" صناعيا يحمل جميع خصائص النعجة الأولى. وقد أجريت تجارب مماثلة ناجحة على الضفادع والقردة. حتى إن العلماء لقد بلغوا الآن إلى أنهم يستطيعون أن ينتجوا "مزدوج" الإنسان الذي يطابقه تماما، كمثل التوأمين، إنتاجا صناعيا في المعامل وبدون الافتقار إلى عمل جنسي. وذلك بانتزاع خلية من الإنسان وتطويرها بطريقة خاصة ثم إدخالها في رحم مستأجر. والإنسان الذي يولد عن طريق

هذا الحمل الصناعي يكون صورة صادقة تماماً عن الإنسان الأول، مشابها له في جميع الصفات والخصائص. فقد كان الدكتور إيان ويلمونت متأكدا من أن العلم سوف ينجح في إنتاج "الإنسان المستنسخ" Human Clone خلال سنتين فقط.

والنعجة المستنسخة التي سميت "دولي" تعيش الآن في الشهر السابع من عمرها، فيما كانت الخلية التي استنسخت منها قد انتُزعَت قبل ست سنوات ونصف وحفظت بطريقة علمية خاصة. وهذا الإنجاز الصناعي لتوائم الأشياء الحية من الخلية رأسا بدون العمل الجنسي يعرف بـ "الاستنساخ" Cloning. وتقع هذه العملية في اختصاص "الهندسة الجينية" Genetic Engineering، وهو علم وُلد حديثا. ولكن هذه العملية عملية مرهقة للغاية، كما أنها تكلف نفقات باهظة لا تقلّ عن مئات الألوف من الدولارات.

أما النتائج الأخلاقية والاجتماعية التي تتمخّض عنها هذه التجارب، فقد احتفلت الدوائر العلمية بالمناقشات الساخنة حولها. وأما السلطات الدينية فإنها تشجب نقل هذه التجارب إلى النوع البشري، مما أفضى بكثير من الدول إلى إصدار الأوامر بمنع هذه التجارب على الإنسان. ولكن إلى متى... ؟؟

نظام أساسي في عالم الأحياء

وإذا رأينا أن "مزدوج" الإنسان الذي يشاركه في جميع الصفات يصنع من خلية واحدة من الخلايا الكثيرة، فذلك يدل على أن كل خلية من الخلايا

الجسدية يمكن أن يصنع منها إنسان مستنسخ جديد. فكل واحد من البشر يمكن أن يستنسخ منه بلايين صور متشابهة لنفس الإنسان. إذ أن الإنسان عبارة عن اجتماع بلايين البلايين من الخلايا الصغيرة التي لا تُرى بالعين المجردة إلاّ بالمجهر. وكذلك الأشياء الحية الأخرى من الحيوانات والنباتات. وكل خلية تكون وحدة مستقلّة تشكّل معملا كاملا بالذات. وهي تكون مشحونة بمادة دائمة الحركة تسمى في المصطلح العلمي "البروتوبلازما" وهذه المادة تشتمل على "المادة الوراثية" التي تعرف بالكروموسوم و DNA، بالإضافة إلى المواد الأخرى. و "المادة الوراثية" تكون بمثابة خزانة تودع فيها الصفات النوعية لذلك النوع. فكروموسوم النعجة مثلا توجد فيه الخصائص النوعية للنعجة، وكروموسوم القرد يختزن الخصائص النوعية للقرد، وكروموسوم الإنسان يضمّ الخصائص النوعية للنوع البشري. وهذه الصفات النوعية تنتقل كابرا عن كابر وجيلا عن جيل. ومن أجل ذلك تشابه الأولاد أبويهم في معظم الحالات في اللون والبشرة وملامح الوجه والعادات والأخلاق. فكأن كل خلية لأي واحد من البشر تحمل "شبيها كاملا" لنفس البشر. كما أن البداية الحقيقية للجنين تبدأ في بطن الأم بخلية واحدة تسمى "اللاقحة" Zygote، وهي تتكون باتحاد الخليتين: خلية للأب، وخلية للأم. وهذه اللاقحة تشابه في تطورها النظام الجرثومي العام، فهي تبدأ في الانقسام إلى مثلها من الخلايا ما بين كل عشرين إلى ثلاثين دقيقة، وتتكاثر على هذا النحو حتى لا يأتي اليوم المائة والعشرين إلا والجنين يأخذ صورته المتكاملة في بطن الأم.

محاكاة الخلق الإلهي

وهذا هو "القانون الإلهي" الذي سنّه الله في هذا الكون. والإنسان حينما درس هذا القانون بالنظرة الغائرة هدته فكرته إلى الطريقة التي يتم بها "الخلق الصناعي اللاجنسي" للأشياء الحية من خلية واحدة من خلاياها الكثيرة. ولكن الإنسان لم يكن ليمرّ بخاطره أنه قد قام عن طريق هذه التجربة، وعلى غرّة منه، بتصديق العقيدة الدينية الرئيسية عقيدة البعث بعد الموت يوم القيامة وتأييدها تأييدا حاسما. فكأن العلماء الماديين قد أحدثوا حجة ظاهرة على حقانية التعليمات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنها من عند الله تعالى، ولو لم يشعروا بذلك. وذلك أن هذه التجربة العلمية قد أظهرت بلا ريب، ومن الناحية العلمية البحتة أن الإنسان الميت ليركّبنّ ثانيا فيما إذا عُثر على خلية واحدة من خلاياه لم تبلغها يد الفناء، والأمر ليس بمستحيل عقليا ولا علميا.

اكتشاف بديع على لسان النبوة

وبعد مطالعة هذه الحقيقة العلمية قد آن الأوان أن ننتقل إلى ما جاء في بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تقوم بالإفصاح عن بعض الحقائق البديعة بخصوص المعاد الجسدي للإنسان. فقد ورد فيما رواه الشيخان البخاري ومسلم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال:

"ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظما واحدا، وهو عجب

الذنب، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة". [١]

كما جاء في رواية أخرى أن عجب الذنب شيء مثل حبة خردل. [٢]

والمعنى أنه شيء دقيق جدا. وكان هذا العبد الضعيف، من حيث كونه واحدا من تلاميذ علم الأحياء، قد عيّنَ فحوى المراد بكلمة "عجب الذنب" أنه خلية من الخلايا بعد إمعان النظر في علم الأحياء بكل جراءة. (وقد أظهرت هذه الفكرة بكل تفصيل في كتابي "الأدلة العلمية على المعاد الجسدي" بالعربية وفي كتاب لي "القرآن الكريم وعلم النبات" بالأردية.) وقد جاءت الآن الاكتشافات الأخيرة لتُحْكِم ما ذهبت إليه قبل خمس عشرة سنة من أن خلية واحدة من البشر يمكن أن يستخلص منها بشر مثله. وهكذا فقد تهيأ الجوّ لحدوث انقلاب عظيم في مجال الفكر والفلسفة. فإنه انقلاب إسلامي، انقلاب لا يهون أمره، انقلاب له شأن عظيم ومنزلة سامية من الناحية العقلية، انقلاب يدكّ معاقل النظريات المهلهلة الضالة، ويقطع دابر الفلسفات المادية.

الحياة بعد الموت: مشاهدة من صميم الواقع

أما إنه كيف يمكن أن تبقى خلية من الخلايا حيّة إلى هذا الأمد الطويل؟ فهذا الأمر هو الآخر أصبح واضحا مستنيرا بفضل التحقيقات الحديثة. فقد أوضحت الدراسات أن هناك كثيرا من الجراثيم والميكروبات - وهي تكون

---

[١] انظر صحيح البخاري ٦/ ٧٩ وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٧١.

[٢] انظر فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٨/ ٥٥٢.

وحيدة الخلية - تتعرّض لظروف نابية، فتبقى وكأنها ميتة آلافا من السنين ولكنها تعود إلى حيويتها الأولى حينما وافقت ظروفا مناسبة. والميكروبات تكون أنواعا مختلفة، فمنها ما يكون في التراب، ومنها ما يكون في الماء، ومنها ما يكون في الهواء. وكما قد ذكرنا سابقا إن جميع الأشياء الحيّة من الحيوانات والنباتات يوجد فيها "النظام الخلوي" على حد سويّ، باعتبار أن كلا منها، سواء كان صغيرا أم كبيرا، يتكون بمجموعة من الخلايا تكثر وتزداد باختلاف الأنواع. فالميكروبات تكون وحيدة الخلية، والحشرات تتركب بآلاف من الخلايا، كما أن بعض الحيوانات الصغيرة يتكون بمئات الألوف من الخلايا، وبعضها الأكبر منها يتكون بملايين منها، وبعضها يتكون ببلايين البلايين من الخلايا، مثل الإنسان والبقر والأسد. وهكذا يسير "عالم الأحياء" وفق النظام الخلوي العام. والخلايا في الأجسام الحيّة تتعرّض دائما للانقسام والانفطار، فتتكون الخلايا الجديدة على أنقاض الخلايا القديمة. والخلية الواحدة من البشر تكون مشابهة للجراثيم في هيئتها، والتي هي وحدة للحياة.

وعلى كل، فإن هناك بعضا من الجراثيم تَحْيَى آلافا من السنين تحت تراب ثقيل في حالة "أشبه بالموت"، ثم تعود إلى عملها الحيوي مرة أخرى حينما تلاقي ظروفا مساعدة للنمو، فتنشأ وتنمو كما كانت من قبل. وهي تكون طيلة هذه المدة في حالة "السبات" Dormancy، وهي في هذه الحالة تسمى "الأسبور" Spore.[٣]

---

[٣] انظر موسوعة بريطانيا: ١٠/ ٨٩٣، المطبوعة ١٩٨٣م.

إنما الأموات رقاد

وإن هذا لشهادة عظيمة على كيفية الإحياء بعد الموت، وعلى جانب عظيم من الأهمية. فكأن فاطر الكون قد أودع كل مظهر من مظاهر الكون المادي مكتبا من الدروس والبصائر لهداية النوع البشري وتذكيره. وهذا الاكتشاف واحد من تلك الدروس اللامتناهية والذي يوفّر حجة واقعية مشهودة على أنه إذا وُجدت خلية من خلايا الإنسان - وهي تكون مثل الجرثومة - محفوظة من التحلل والتفسخ - وهي تتمثّل كأنها "ميتة" قد فارقتها الحياة بتاتا، وهي في الواقع ليست ميتة ولكنها في حالة "السبات" - فهي وحدها كافية للنشأة الثانية لنفس البشر مع جميع صفاته ومميزاته، ولا بدع في ذلك علمياً. فقد جاء فيما يصرّح به القرآن الكريم أن الناس حينما بُعثوا يوم القيامة ظنوا أنهم كانوا نائمين إلى الآن. كما قال تعالى:

﴿ونفخ في الصور، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون. إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ يس: ٥١- ٥٣

الخلق الإلهي والتصنيع البشري

إن النجاح الأخير الذي حققه الإنسان في استنساخ شبيه الحيوانات ليس نجاحا عاديا أو أمرا يسيرا، وإنما هو أمر أقصى ما يكون في الصعوبة والإرهاق. فإن العلماء قد جربوا هذا العمل على حوالي ثلاثمائة أجنّة Embryos قبل أن يتمكنوا من إنتاج "مزدوج" للنعجة المذكورة. يعني أنهم

كرّروا نفس التجربة قُرابة ثلاثمائة مرة حتى نجحوا في المرة الأخيرة. ولكن الله تعالى فاطرَ الكون لا يحتاج إلى مثل هذا التكرار و "الإسراف"، إنما هي صيحة أو زجرة واحدة وإذا بالناس يخرجون من الأجداث، كما جاء في الآية المذكورة آنفا.

﴿إن كانت إلا صيحة واحدة، فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾

وهنا لا بد أن نكون على معرفة من أن ما ورد في الحديث النبوي الشريف المذكور آنفا أن الإنسان يركّب للمرة الثانية من الشيء الذي سماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بـ "عجب الذنب"، إنما جاء ذلك لتذكير الإنسان وتقريب الأمر إلى فهمه، ولا أكثر من ذلك. ولكن الله تعالى لا يحتاج إلى الالتزام بالقوانين المادية التي سنّها في الكون لإظهار قدرته. لأنه هو الذي يُخرِج الأشياء من كتم العدم إلى حيز الوجود. فالأمر عنده ليس أكثر من أن يقول "كن" وإذا الشيء "يكون":

﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ يس: ٨٢ - ٨٣

إن النجاح الذي حققه الإنسان في إنتاج حيوان متكامل من الخلية الواحدة، إنما هو خير موضّح لكيفية المعاد الجسدي يوم البعث. كما قد أكّد ذلك النجاحُ أن الإنسان يستطيع أن يكرّر نفس التجربة لعدد ما شاء من المرات. فإذا كان الإنسان قادرا على إعادة عملية التصنيع أفلا يكون ذلك الإله القدير الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى قادرا على إعادة الحياة إلى مخلوقاته؟ فالحق أن العلماء الطبيعيين قد أكّدوا

تأكيدا نهائيا على حقانيـة عقيـدة القيامـة بالتجربـة الناجحة التـي نفّذوهـا في مجال الاستنساخ.

وإن الإنسان ليشاهد في حياتـه اليوميـة نماذج لخلـق الإنسـان مـن خليـة واحدة في "الجنين" الذي يتكون من الخلية المخصبة. ثم يوم القيامـة يعيـد الله تعالى خلق الإنسان من خلية واحدة كذلك. ولذلك قال تعالى:

﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾ الواقعة: ٦٢

هل أصبح الإنسان خالقا؟

هذا، وأما القضية التي أدهشـت النـاس كثيراً وأقـامت أمـامهم سـوالا كبيرا، فهي أن الإنسان هل أصبح خالقا بتنفيذ هذه التجربـة المدهشـة؟ كمـا نرى أنه قد ارتفع الضجيج والصخب في جميع الدوائر الإنسانية أن الإنسـان قد تدخّل بهذا العمل في الخلق الإلهيّ، تبارك الله تعالى. ولكـن هـذا القـول قول سخيف وفكرة واهية. بـل إن هـذا العمـل الإنساني إنمـا يزيـد المؤمنين إيمانا واستيقانا بعظمة الذات الإلهية وعلوّ قدرتها، فضـلا مـن أن يغـضّ مـن شأن الألوهية أو يُعتبَر تدخّلا فيه. لأن هذه المنجزة البشرية وإن كانت تبـدو في أول الأمر من الأعاجيب ولكنها ليست في الواقع "معارضة للفطرة". لأن العلمـاء لـم يفعلـوا أكثر من أنهـم قـاموا بمطالعـة الأصـول الطبيعيـة بجدّيـة وإمعان، ثـم أنجزوا مـا أنجـزوا متبعـين تلـك الأصـول الإلهيـة. فـالأمر أمـر محاكاة وتقليد وليس أمر إبـداع وإنشـاء. نعـم، إنمـا قـد يكـون هـذا العمـل البشـري حقيقـا لأن يعتـدّ مـن مفـاخر البشـرية إذا كـان العلمــاء قـد أنجـزوا الاستنساخ من العناصر الميتة أو التراب. أما وإنهم استعملوا في ذلـك خليـةً

من الخلايا الجسدية التي خلقها الله تعالى، فكيف يمكن أن يُحْسَبَ الإنسانُ خالقا "للمُسْتَنْسَخ" من الخلية، وهو لم يخلق تلك الخلية. من أجل ذلك، لا يمكن أن يرتقي الإنسان إلى مرتبة الخالق أبد الآباد. نعم، إنه حريّ لأن يقال "محاكيا" أو مقلدا.

القرآن الكريم يتحدّى

إن القرآن الكريم لَيتحدى النوع البشري كلهم أجمعين وما يدعون شهداء من دون الله تعالى تحدّيا صارخا أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا شيئا حقيرا مثل الذباب فما فوقه. كما قال تعالى:

﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له﴾ الحج: ٧٣

وكان هذا المَثَل الذي ضربه الله تعالى منطبقا في ماضي الزمان على الآلهة الكاذبة التي يعبدها المشركون. ولكنه صادق اليوم، وبنفس الصدق، على العلماء الماديين الذين يزعم الناس فيهم وكأنهم قد استولوا على عرش الألوهية. وذلك أن دهماء الناس اليوم قد شدّوا "العقيدة" على أن هؤلاء العلماء قادرون على أن يفعلوا ما يريدون. فإذا كانت الدنيا العلمية تدّعي أو تظن من نفسها اليوم أنها تستطيع أن تعتلي مركز الخالقية فإنه يجب عليها أن تُخْرِج شيئا ذا حياة، ولو كان حقيرا، من العناصر الميتة. ولكن الحق الذي لا ريب فيه أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك أبدا. فكيف يكون في هذا الكون خالق وبارئ سوى ذلك الخالق الواحد الأحد الذي مازال ولا يزال وحيدا في خالقيته وألوهيته:

﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء، لا إله إلا هو، فأنى تؤفكون﴾
المؤمن: ٦٢

تغيير خلق الله من عمل الشيطان

وعلى كل، فإن هذا العمل ليس "عملا بَنَّاءًا"، بل هو "عمل هدام" يُعتَبر تغييرا لخلق الله تعالى. وقد كشف الله العليم الخبير هذه الحقيقة على لسانِ إبليس الرجيم حينما لعنه الله تعالى وجعله من المُبْعَدين عن رحمته:

﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ النساء: ١١٩

ثم يقول الله تعالى: ﴿يعدهم ويمنّيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ النساء: ١٢٠

وقد أتى القرآن الكريم بلفظة "غرور" في هذا المقام، وهي تنبئ بأن هذا العمل، أي تغيير خلق الله، إنما هو خداع بالنوع البشري وتضليلهم بالوعود الكاذبة. ولا بد وأن يأتي يوم يحصد فيه النوع البشري عواقب وخيمة لهذا العمل الشنيع، فيتضرّر بها النوع البشري كله.

الجوانب الأخلاقية والاجتماعية للاستنساخ

أما القضايا الأخلاقية والاجتماعية التي تنشأ من نتائج هذه التجربة وكيف تعالج وما هي حلول سليمة لهذه المعاضل؟ فإن المسئولية في ذلك إنما تعود على أولئك الذين يجترمون هذا الفعل القبيح الذي يتسفّل بالنوع البشري من درجة "الأشرفية" إلى الدرك الأسفل من الحيوانية، ويسخّرون

النوع البشري لتحقيق أهدافهم الدنيئة وأمانيّهم الشيطانية وهم الذين يفترض عليهم أن يقوموا بتخليص البشرية من الأزمات والشدائد التي ألّمت بها بما كسبت أيديهم. وما حملهم على ارتكاب هذا الإثم إلا أنهم قد نسوا خالقهم ومالكهم وإلههم الحق، واغترّوا بخُلَّب المادية، واتخذوا لأنفسهم الألاعيب المادية معوّلا وأنيسا. وذلك لأنهم لا يؤمنون بقوّة أقهر وأعزّ في هذا الكون من تلك المادة، ولا بأنهم يكونون محاسَبين عندها على ما يفعلون. فانصرفوا إلى اللهو واللعب والغطرفة والعصيان، وأصمّوا آذانهم وأعمَوا أبصارهم عن الإشارات الغيبية، وجعلوا يظنون أنهم أحرار في هذا الكون، متحررون من جميع القيود والحدود ليس عليهم حفيظ و رقيب.

ولكن الوقت قد حان لتتغير الموازين، لأنهم لا يتّسع لهم الآن أن يستمرّوا على دأبهم في الصدوف عن عقائد التوحيد والإيمان والروح والبعث بعد الموت. والآن لابد لهم أن يستيقنوا بالعقائد الإسلامية وتوجيهاته، ولا مندوحة لهم عن ذلك. وكذلك لا يزال الله يريهم الآيات البينات على وجوده وقدرته:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾

حم السجدة: ٥٣

اندحار الفلسفات المادية

وعصارة القول إن الانقلاب العظيم الذي حدث في عالم الفكر والفلسفة بفضل "الاستنساخ" إنه سوف يطوّح بالفلسفات المادية والإلحادية،

ويُظهِر حقانية الدين الإلهي الأبدي. لأن العلماء الطبيعيين أنفسهم قد كسروا طلاسم الفلسفات المادية التي تسبّ العقائد الدينية بأنها مجموعة من الأباطيل والأخاديع، وترفع الهتافات العالية بأنه لا يصحّ الاعتماد إلا على "المعلومات" التي تحصل بـ "العقل" و "التجربة"، وتزعم أن العلم الذي لا يدرك بالحواس البشرية إنما هو علم لا أساس له فلا يستحق الاحترام والتقدير. والفلسفات من أمثال "المادية" Materialism، و "المذهب العقلي" Rationalism, و "العلمية" Scientism، و "الوضعية المنطقية" Logical Positivism إنما خرجت من بطن هذه النزعة الفكرية. ولكن تجربة "الاستنساخ" المثيرة قد أكدت تهلهل هذه الفلسفات وضلالاتها، فقد أسفرت الحقيقة عن صدق العقائد الدينية، وانبلج الحق بأن هناك نوعاً من العلم لا يحصل عن طريق المدركات البشرية، وإنما هو علم أنزله الله وحياً على عباده الذين اختارهم لرسالته. أفليس ذلك مما يُقْضَى به العجبُ أن العلم البشري نفسه يؤكّد حقانية "العلم الإلهي" و "الوحي الإلهي"، ويشدّ أزره بتجاربه واكتشافاته؟ وهل في عالم الفكر والفلسفة حقيقة أغرب وأعجب من أن الإنسان يجحد شيئا بلسانه، ثم يثبت ذلك الشيء ويُحقّه بفعله وعمله، فتكون جوارحه مكذّبة لما يجري به لسانه؟ فهل يكون هذا التناقض في القول والعمل من "العقلانية" في شيء؟ أفليس ذلك موقفا يتنافى مع العقل والمنطق؟ فقد قال الله تبارك وتعالى:

﴿ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون؟﴾ غافر: ٨١

وقال تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل، سأريكم آياتي فلا

تستعجلون﴾ الأنبياء: ٣٧

هل من مدّكر!!

أفلم يتبين بهذه الدراسة السريعة أنْ لا ريب أن في هذا الكون إله جلّت قدرته وتعالت عظمته، علمه أزلي، والأمور كلها دائرة على ما يقضي به تدبيره وتشريعه؟ أو لم يظهر أن يوم القيامة آت لا محالة، وهو يوم ينشر الله فيه جميع النوع البشري فيحاسبهم على ما كانوا يفعلون:

﴿أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة. أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون. فاسجدوا لله واعبدوا﴾ النجم: ٥٧ - ٦٢

خاتمة الكتاب

إعجاز القرآن الأصيل

لقد بان من هذه العجالة أن القرآن الكرم ليس كتاب شريعة وأخلاق فقط يشمل المسائل الفقهية والعائلية، بل إنه يبحث كذلك عن أفكار الإنسان ونظرياته المنحرفة واتجاهاته الزائفة من حيث الفلسفة والاعتقاد. فيوجّه له الاتجاه السديد بالأدلة العلمية ويزيل شبهاته ومعارضاته بالبينات، فيقوّم أفكاره ونظرياته الزائفة كما يزيل الغش والزيف من العقائد الباطلة. فيطهّرهم من أدران الشرك والمادية وأنواع من الفلسفات الضالة المضلّة.

فإن القرآن الكريم كتاب رشد وهداية من جميع هذه الوجهات. وإنه يبحث عن الشريعة والطبيعة، والشرع والكون، وعن جُل ما يحتاج إليه الإنسان من الدين والدنيا. فإن هذا الكتاب الحكيم كتاب معجز، أعجز النوع البشري عن الإتيان بمثله، لما فيه جوامع الكلم من النصوص والإرشادات الشاملة لكل عصر ومصر. فلا يعجز -إذًا- أن يؤدي دوره في أي زمن من الأزمان، مهما تقدم الإنسان وازدهرت علومه.

هذا هو الإعجاز الأصيل والصورة الباهرة البديعة لهذا الكتاب العظيم. وإن وظيفته أن يهدي ويرشد النوع البشري من كل وجهة. ولذلك

يقدّم له الحقائق المبتكرة البديعة نظرا إلى عقلية كل عصر من العصور ونفسيته. لينتبه الناس ويتوجهون إليه بكل حيرة واستعجاب، ثم يستهدونه ويتلقّون الأوامر منه، فيسعدون في الدنيا والآخرة.

هذا هو السر في شمول القرآن قضايا الإنسان وعلومه، اقتضاءً للمتطلبات العصرية إلى يوم القيامة. ولذلك قال الله عز وجل:

﴿لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم، أفلا تعقلون.﴾ الأنبياء: ١٠

وقال تعالى: ﴿بل أتيناهم بذكرهم، فهم عن ذكرهم معرضون.﴾ المؤمنون: ٧١

وقال تعالى: ﴿كلا إنه تذكرة. فمن شاء ذكره﴾ المدثر: ٥٤-٥٥

وقال تعالى: ﴿فذكّر إنما أنت مذكّر.﴾ الغاشية: ٢١

وقال تعالى: ﴿فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد.﴾ ق: ٤٥

تبدو من الآيات السالفة ذكرها والتي مذكورة في الصفحات السالفة بأن القرآن الكريم ذكر وتذكرة من وجهات كثيرة، لما فيه من الدروس والعبر والحقائق الأبدية التي تنبّه الناس وتذكرّهم لينتبهوا من غفلتهم ويأخذوا للأمر أهبتهم. وهذه الهداية الشاملة للنوع البشري هو الإعجاز القرآني الأصيل.

هذا بصائر للناس.

الجهاد الأكبر في العصر الراهن

الجهاد قسمان: جهاد بالنفس أو جهاد عسكري، وجهاد باللسان أو جهاد علمي. فأما الأول فلا يكون صالحا في كل من الأزمان نظرا إلى أحوال المسلمين سياسيا واجتماعيا. وأما الثاني فهو ملائم لكل عصر ومصر. وبناءً على ذلك فإن الجهاد العلمي يجدر بالمسلمين في هذه الأيام. لأنهم رغم أن قد بلغ عددهم إلى البليون، لا يستطيعون الجهاد العسكري، لضعفهم في هذا الميدان. فلا مندوحة عن الثاني، وهو بالبحوث والدراسات والمناقشات والتأليفات في ميدان الاستدلال، لتحقيق حقانية الإسلام وتعاليمه ومحاسنه العقلية، وتقديم دعوة الإسلام في زيّ قشيب. ولذلك زيّن القرآن بالأدلة العلمية والمعارف الأبدية المبتدعة التي تنكشف في كل عصر لتجديد الدين الإلهي. ولذلك قيل:

﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن.﴾ النحل: ١٢٥

وقد قال الله تبارك وتعالى بأنه يغلّب دينه على جميع الأديان والنظريات المنحرفة في ميدان العلم والاستدلال:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولوكره المشركون.﴾ التوبة: ٣٣

وبما أن القرآن الحكيم جامع العلوم والمعارف الأبدية، أُمر المسلمون بأن يجاهدوا بالقرآن الكريم جهاداً كبيراً. أي بعلومه ومعارفه وحقائقه وكلماته الصادقة في كل عصر:

﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً.﴾ الفرقان: ٥١-٥٢

ولقد ورد في الحديث النبوي الشريف بأن الجهاد قد فرضه الله تعالى على المسلمين إلى يوم القيامة:

"الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال". [١]

تثبت من هذا حقيقتان: الأولى أنها لقد فُرض الجهاد من أول يوم بُعث فيه محمد رسول الله صلعم، مع أنه لم بقاتل المشركين بالسيف في العهد المكي. بل قاتلهم في العهد المدني، حين أصبح الإسلام قويا عزيزاً. فالمراد به الجهاد العلمي. أي الدعوة والتبليغ بالأمن والسلام، أي بثورة لم تُرَق فيه الدماء. والحقيقة الثانية أن الجهاد ينبغي أن يجري دائمًا بغير انقطاع ولا تعطيل.

وهاتان قدوتان للمسلمين في جميع العصور والأزمان أن يجاهدوا في هذا المضمار نظراً لمقتضيات عصرهم. فبناءً على هذا ينبغي لهم أن يدعوا الناس إلى الإسلام بالأدلة العلمية بكل هدوء وسكون. ولذلك استوعب القرآن الحكيم الدلائل والآيات البينات وأسرار العلوم اقتضاءً لكل عصر وبناءً على أنها تؤثر في نفوس الناس كثيراً. ومن الأحاديث النبوية ما يشهد على الجهاد العلمي، كما جاء فيها:

"جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم". [٢]

---

[١] رواه أبو داؤد في سننه في كتاب الجهاد: ٣/ ٤٠، ط حمص، ١٣٩١هـ.

"إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه" .[٣]

والغرض من الجهاد هو إعلاء كلمة الله تعالى .[٤]

وهذا يشمل جهاد النفس وجهاد اللسان أو العلم. واعلم أن الجهاد في الماضي إنما كان بالنفس أو اللسان، وما كان معهوداً بالعلوم والمؤلفات والآداب. وأما اليوم فهو ملحق به من هذه الوجهة أيضًا لما فيه من المناسبة بين اللسان والبيان أو الخطابة والكتابة، ولأن الإسلام هو دين أبدي جاء لكل العصور، فلا ينحصر في زمن خاص. وهناك وجه آخر، وهو أنه لم يكن عصر النبي صلعم عصر التأليفات والآداب فلذلك اكتفى بذكر "اللسان" فقط. وهذا يتعلق ببلاغة النبي صلعم، وهو يخاطب قومه بلسانهم وأحوالهم، وإلا لتعذّر فهمه عليهم.

النهضة الإسلامية الجديدة

وعلى كل، فإن الجهاد بالعلم إنما يكون اليوم بالقرآن وأدلته ومعارفه وأسراره واشراقاته العلمية التي هي مذكورة فيه بأنواع من "التذكيرات" والتي هي "مذكّرة" عند تقدم العلوم وازدهارها، فتنبّه الإنسان من نُعاسه ورقوده. ولذلك قال تعالى: ﴿وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ أي بالقرآن. وهذا هو جهاد كبير من الوجهة القرآنية. وهذا هو السرّ في تجهيز القرآن

---

[٢] سنن أبي داؤد: ٣/ ٢٢.

[٣] مسند أحمد بن حنبل: ٣/ ٤٥٦.

[٤] أنظر سنن أبو داؤد: ٣/ ٣١.

بالأسلحة العلمية المتنوعة، لتكون حجة على العالم وسيفًا قاطعًا في إبطال المادية والإلحاد وأنواع من الفلسفات الضالة التي تحيط العالم البشري من كل جهة وتكاد تبتلعه تمامًا. والقعود عن مقاومة هذه التيارات الجارفة سيفضي إلى الفوضى في عالم الأفكار فلا بد عن معالجة هذه القضية الكبرى المعقدة وكفاحها في ضوء القرآن الكريم. وهذه هي المعركة القاطعة الفاصلة بين الدين واللادينية، ولعل تكون هذه هي الأخيرة.

وهذا هو الجهاد الأكبر في العصر الراهن. وبهذا الجهاد المتواصل يلائم الجو لتحقيق النهضة الإسلامية التي هي رؤيا المسلمين من أمد بعيد. وهذه النهضة لا تتحقق إلا على أسس العلم وتجديده من منظور إسلامي. ولكنه لا يتجدّد إلا بانهزام المادية وفلسفاتها. ومن هذه الوجهة هزيمة المادية وانكسارها هي من أكبر حاجات العصر. وهذه مسئولية العصر تعود إلى العلماء المسلمين أن يستعدوا لمقاومة هذه التيارات. لأنهم هم الذين وُجّهت إليهم قيادة العالم البشري للأخذ بناصيته. كما قال الله تبارك تعالى:

﴿كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ البقرة: ١٤٣

وهذا هو نداء الساعة.

الفهارس

(أ) المراجع
(ب) المصطلحات العلمية
(ج) الفهرس الأبجدي للموضوعات
(د) الآيات القرآنية
(ه) المحتويات

المراجع

الكتب العربية :

١ - *القرآن الكريم* .

٢- *الفوز الكبير*، الشاه ولي الله الدهلوي ، كراتشي .

٣- جواهر *القرآن* ، أبو حامد الغزالي ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ١٩٨٥م .

٤- *التبيان في أقسام القرآن* ، ابن قيم الجوزية ، دار الإفتاء ، الرياض .

٥- *الإتقان في علوم القرآن* ، جلال الدين السيوطي ، دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥م .

٦- معجم *ألفاظ القرآن الكريم* ، الهيئة المصرية العامة للتأليف ، مصر .

٧- *المفردات في غريب القرآن* ، راغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، بيروت .

٨- *صحيح البخاري* ، محمد بن إسماعيل البخاري ، المكتبة الإسلامية ، تركيا ، ١٩٧٩ .

٩- *صحيح السلم* ، مسلم بن حجاج القشيري ، دار الإفتاء ، الرياض ، ١٤٠٠هـ .

١٠- *سنن الترمذي* ، أبو عيسى الترمذي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١١- *سنن أبي داؤد* ، أبو داؤد السجستاني ، حمص ، ١٣٨٨ .

١٢- *مسند أحمد بن حنبل* ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٨ .

١٣- *فتح الباري*، ابن حجر العسقلاني، دار الإفتاء، الرياض.

١٤- *شـرح الفقـه الأكـبر*، أبـو منصـور مـاتريدي، إدارة الشـؤون الدينيـة، قطر.

١٥- *الحكمة في مخلوقات الله*، الإمام الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١٦- *لسان العرب*، ابن منظور الإفريقي، دار الصادر، بيروت.

الكتب الإنكليزية:

17- *Encyclopaedia Britannica*, 1983.

18- *Oxford Illustrated Encyclopaedia*, 1993.

19- *The Encyclopaedia of Ignorance*, Roland Duncan, Pergamon Press, Oxford, 1978.

20- *Asimov's Guide to Science*, Isaac Asimov, Penguin Books, England, 1978.

21- *A History of Science*, W.C. Dampier, S. Chand & Co., New Delhi, 1982, 1st Edition.

22- *The New Book of Popular Science*, Grolier International INC, 1987.

23- *Human Genetics*, Rothwell, Prientice Hall of India., New Delhi, 1978.

24- *Cell Pysiology and Biochemistry*, William D. McElory, Prentice Hall of India, New Delhi, 1978, (3rd Edition).

25- *The Birth and the Death of the Sun*, George Gamow, New York, 1956.

26- *The Mysterious Universe*, Sir James Jeans, Cambridge University Press, 1935.

27- *Man the Unknown*, Dr. Alexis Carrel, Wilco Publishing House, Bombay, 1959.

28- *Reader's Digest*, January 1989.

المصطلحات العلمية

Anatomy	علم التشريح
Angiosperms	الأنبتة المزهرة
Asteroid	كويكب
Astrologer	منجم
Astronomer	عالم فلكي
Astronomy	علم الفلك
Astrophysicist	عالم فلكي
Atmosphere	الكرة الفضائية/ الجو
Atom	ذرة
Axis	محور
Bacteria	جرثومة ، جراثيم
Big-Bang Theory	نظرية الانفجار العنيف
Biochemistry	الكيمياء الحيوية
Biology	بيولوجيا ، علم الحياة ، علم الأحياء
Bomb	قنبلة
Bone	عظم
Botany	علم النبات
Calcium	كلسيوم

Carbohydrates	كربوهيدرات
Carbon	كربون
Carbon Dioxide	ثاني أكسيد الكربون
Carbon Monoxide	أول أكسيد الكربون
Celestial Bodies	الأجرام السماوية
Cell	خلية
Ceres (Comet)	سيرس (مذنب)
Chlorine	كلور
Chlorophyll	كلوروفيل
Chloroplast	حبيبة اليخضور
Chromosomes	الصبغيات، كروموسومات
Clone	مزدوج
Collision	انفجار
Comet	مذنب
Diameter	قطر
DNA	مادة كيميائية توجد في الكروموسوم
Elements	عناصر
Embryo	جنين
Embryology	علم الجنين
Entropy	أنتروبيا
Enzymes	إنزيمات

Evolution Theory	نظرية النشوء والارتقاء
Fats	شحميات
Fertilisation	تلقيح
Fungus	طحلب
Galaxy	مجرة
Gas	غاز
Genes	جينيات (المورثات)
Genetical Engineering	الهندسة الجينية
Genetics	علم الوراثة
Germs	الجراثيم
Dolly	دولي
Gravity	قوة التجاذب
Gregorian Calender	التقويم الغريغوري
Halley (Comet)	هيلي (مذنب)
Helium	هليوم
Hermes (Asteriod)	هرمس (كويكب)
Human Clone	الإنسان المستنسخ
Hydrogen	هيدروجين
Injection	حقنة
Insects	حشرات
Jupiter	مشتري

خسوف	Lunar Eclipse
ميكروبات	Microbes
مريخ	Mars
زواج ، قران	Matrimony
مقياس	Measure
آلية ، منكانيكية	Mechanism
الطب	Medicine
ميغاطن	Megaton
شهب	Meteorites, Meteors
مليغرام	MGM
مجهر	Microscope
علم التشكل	Morphology
كونية ، طبيعية	Natural
كون ، طبيعة	Nature
نتروجين	Nitrogen
مستسعرة	Nova, (Novae)
زيتون	Olive
مبيض الأنثى	Ovary
أوكسيجن	Oxygen
بنسلين	Penicillin
فوسفور	Phosphorus

Photosynthesis	عملية الأوراق
Physics	علم الطبيعة
Physiology	علم وظائف الأعضاء
Planet	كوكب
Plants	نباتات
Pollengrains	حبوب اللقاح
Pollination	تلقيح
Potassium	بوتاسيوم
Properties	خواص
Protein	بروتين
Protoplasm	بروتوبلازما
Psychology	علم النفس
Respiration	عملية التنفس
Rocket	صاروخ
Salts	الأملاح المعدنية
Sand	كثيب (رمل)
Science	العلم
Scientific	العلمية
Second Law of Thermodynamics	القانون الثاني للديناميكا الحرارية
Seed	بذرة
Seed-Grain	حب

Sex	العمل الزواجي
Shoemaker	شوميكر
Shoemaker-levy 9	شوميكر-ليوي ٩
Sodium	صوديوم
Solar Eclipse	كسوف
Solar System	النظام الشمسي
Space	فضاء
Spaceman	رائد فلكي
Species	نوع، أنواع
Spices	توابل، أبزار
Spore	أسبور (الجرثومة الهامدة)
Spring	ربيع
Star	نجم
Sulphur	سلفر
Telescope	تلسكوب
Temperature	حرارة
Thermonuclear Reaction	التفاعل الحراري النووي
TNT	ثالث نتريت التولين
Universe	كون
Vitamins	فيتامينات
White Dwarf	قزم أبيض

رياح	Winds
رحم	Womb
اللاقحة	Zygote

الفهرس الأبجدي للموضوعات

(آ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ف)

(ق)

(ن)

فهرس الآيات القرآنية

المحتويات

المحاضرة الثالثة

الأجرام السماوية تشهد على القيامة

المحاضرة الرابعة

آيات الربوبية في عالم النباتات

المحاضرة الخامسة

عالم النبات يشهد على وجود الخالق

المحاضرة السادسة

الله يتجلى في عالم النبات

المحاضرة السابعة

العلم الحديث يشهد بوقوع القيامة

المحاضرة الثامنة

العصر الفضائي الحديث والطلاوة السرمدية للقرآن الكريم

مقالة جديدة

الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي

خاتمة الكتاب

الفهارس

الأكاديمية الفرقانية وأهدافها

إن الأكاديمية الفرقانية من أبرز المجامع الإسلامية في الهند، أقامها الشيخ محمد شهاب الدين الندوي، لإحياء تعاليم الكتاب والسنة ونشر الأفكار الإسلامية في الطبقة المثقفة والشباب المسلم خاصة. فقد نشرت الأكاديمية ستين كتابا علميا ذاقيمة بالعربية والأردية والإنكليزية، تشتمل على المسائل الراهنة الهامة التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم. ومن أهم أهدافها أن تبلغ دعوة الإسلام إلى أمم غير إسلامية وتنشر كتبا تقوم بدور التعريف بالإسلام في أوساط غير إسلامية. فقد أعدت الأكاديمية عدة كتب لهذا الغرض النبيل وقامت بتوزيعها مجانا. وكتب أخرى لاتزال في دور الطبع والنشر.

وقد أنشأت الأكاديمية مكتبة عظيمة فاخرة، يستفيد بها العلماء والكتاب والباحثون وعامة أبناء الشعب المسلم على السواء، تحتوي على أكثر من ثلاثين ألف كتاب قيم من المراجع الإسلامية والعلمية الحديثة. كما أنشأت دارا للبحث العلمي والترجمة كفرع لها، ودارا للنشر والتوزيع. وهناك مشاريع وخطط أخرى تأتي في المرحلة الثانية.

من أهم أهداف الأكاديمية الفرقانية:

١- تحقيق الإعجاز العلمي للقرآن الكريم بالأدلة العلمية الحديثة.

٢- إبراز المحاسن العلمية والقيم الدينية لمقاومة الإلحاد واللادينية في ضوء العلم.

٣- تقديم خطة شاملة للنهضة الإسلامية للعالم الإسلامي.

٤- عقد المؤتمرات والمناقشات العلمية لتبادل الآراء بين العلماء والطبقة المثقفة.

ولقد أشاد سماحة العلامة الشيخ أبو الحسن علي الندوي بجهود الأكاديمية الفرقانية و مؤسسه في هذا المجال، كما يقول:

تقوم هذه الأكاديمية بتحقيق أهدافها المنشودة منذ ثلاثين سنة تحت إشراف الباحث الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي، ولاتزال تؤدي في مجال خدمة الإسلام وتعريف رسالته دورا ملموسا، نالت هذه الأكاديمية إعجاب الأوساط العلمية والدعوية كما حازت كتبها تقدير الطبقة المثقفة ومكانة بارزة في المكتبة الإسلامية الحديثة.

بعض أهم كتب أخرى للمؤلف

بالعربية :

١- بين علم آدم والعلم الحديث

٢- الأدلة العلمية الحديثة على المعاد الجسدي

٣- التجليات الربانية في عالم الطبيعة

٤- الاستنساخ الجيني يصدق المعاد الجسدي

٥- الحاجة إلى إنشاء دار الشريعة في الهند

تحت الطباعة :

١- القرآن الكرم والدنيا الحيوية

٢- خلق آدم ونظرية التطور والإرتقاء

٣- علم الكلام الجديد

٤- القرآن الحكيم ودنيا النبات

٥- نظرة على تعدد الزواج

English Books

1- The Holy Qur'an and Biology
2- Evolution or Creation?
3- The Holy Qur'an and Natural World
4- The Battle of Islamic Shariah in India

Forthcoming Titles:

1- Holy Qur'an and the Plant World
2- Qur'an Science and Muslim
3- Holy Qur'an and the Theory of Evolution
4- Islamic Code of Marriage
5- Polygamy in Islam
6- Dowry: an Evil

من منشورات

الأكاديمية الفرقانية، بنجلور (الهند)